محمود وهبة



روايــة

وجه الموت

دارك



إهداء

إلى أرواح شهداء فلسطين البواسل على مر الزمان

****

إلى كل من يقرأ كلماتي الآن... أنا أكتب من أجلك

***

إلى الحلم القادم

***

إلى أبي، وإخوتي، وزوجتي، وأبنائي

مقدِّمة

ستائر تتطاير يمينًا ويسارًا بفعل رياح باردة قادمة من شباك محطم الزجاج داخل غرفة قليلة الإضاءة تفوح منها رائحة الدماء والموت، صوت أنين مكتوم يتردد بوهن، ضوء خاطف قادم من فلاش كاميرا قديمة الطراز، قدمٌ تتحرك باتجاه الكاميرا، ومن أسفلها تتدفق دماء غزيرة لرجل أربعيني يفارق الحياة ببطء محاولًا تفادي نزيف رقبته المنحورة بيد مرتعشة وعينين يقل وميضهما مع مرور الوقت، يد تمتد لتمسك بالصورة المطبوعة، تتضح الملامح رويدًا لتُظهر وجهًا لرجل يرتدي قناعًا أسود ممسكًا بسكين يقطر دمًا، وباليد الأخرى يمسك برأس الذبيح محاولًا التقاط صورة أخيرة معه، جلس صاحب السكين بالقرب من الرجل يشاهده وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة حتى همد جسده وهو ينظر إلى قاتله بغضب وحزن وعدم تصديق، أخرج القاتل قلمًا ودوّن كلمات على ظهر الصورة: (سيكون هناك مزيد من القتلى إذا لم يتولَّ التحقيق الضابط صالح طارق). انتهى من كتابة الكلمات ثم اقترب من الجثة وتأكد من موته، وضع الصورة على صدره وغادر في هدوء تاركًا إرثًا من الفزع.

استمع إلى قطرات الدماء التي ترتطم بالأرض، اقترب من ذلك الأنين المكتوم، انظر بتمعن إلى ذلك الظل القابع خلف ظلام دامس، حاول أن تعي ما أنت مقبل عليه، واحترس؛ أنت بين أنياب الهلاك الآن.. اسمعني جيدًا، سوف أعرض عليك أمرًا سينال إعجابك، ما رأيك بمباراة بيني وبينك؟ لا تقلق، ستكون مباراة عادلة، القوانين أمتلكها وحدي، والبداية من حقي، وذلك العالم من صنعي، أنت ستشارك رغمًا عنك، لك كل الحق في التزام الصمت والإنصات، ولي الحق المطلق في الحديث، أظن أنك اقتنعت، جيد... لنبدأ.

(1)

الشمس غير قادرة على الظهور من بين كل تلك الغيوم الكثيفة، عاجزة تمامًا حتى عن القيام بعملها التقليدي في إرسال الدفء إلى جسده. مكث طوال الليل البارد في انتظار سطوعها، لكنها خذلته كما خذل هو والده في الماضي عندما رآه يحتضر أمامه دون أن يحرك ساكنًا حتى فارق الحياة في هدوء، وكيف له أن يتصرف صاحب الخمسة أعوام في موقف كهذا؟! سمع في أذنه دويّ ارتطام سيارة والده بسيارة أخرى كبيرة الحجم اندفعت نحوهم بجنون فجأة، حينها توقف الزمن كما توقف عقله وشُلت حركته، رأى والده وهو يندفع خروجًا من الزجاج الأمامي للسيارة قبل أن تبدأ بالتدحرج والدوران حول نفسها، لم يتذكر كيف استطاع الخروج منها، لكنه فعل بطريقة أو بأخرى، الزجاج تناثر في كل مكان، نظر الطفل إلى يده فوجد دماءً تسيل، رفع نظره إلى السماء فأمطرت، حاول جاهدًا التحرك نحو والده، لكن جسده أبى أن يطيعه؛ فقد تصلّب فجأة من هول المشهد، أراد أن يزيح فك الموت عن جسد أبيه، أراد البكاء، لكنه اكتفى بالعجز، وظل يرمقه في حزن.. ثم فقد الوعي.

أغمض عينه محاولًا إخراج تلك الذكريات المقيتة من رأسه، فلم يرَ داخل ظلام جفنيه إلا نظرة أبيه له وهو يفارقه إلى الأبد، ابتلع ريقه وأخذ نفسًا ملأ به صدره ثم زفره في جفاء، شعر بهزة في جيب بدلته الميري ذات النجمتين وتبعها صوت رنين هاتفه، أخرج الهاتف ونظر إلى الرقم الغريب الذي باغته في عز سكونه المؤلم، نفض عنه أوجاعه وظلام ماضيه وأجاب:

- نعم، هذا صحيح، أنا الملازم أول (صالح طارق)، من المتصل؟

أتاه صوت رخيم عبر الهاتف..

- معك العميد (عادل عبد الظاهر)، رئيس قطاع المباحث الجنائية، أريدك في مكتبي خلال ساعتين.

انتبه صالح ووقف من مجلسه، ثم نظر إلى السماء التي بدأت في إلقاء همومها في كل مكان وقال:

- لكنني خارج القاهرة يا سيادة العميد، أمامي وقت حتى أصل، وعليّ إبلاغ القيادة قبل تحركي من ذلك الكمين الأمنيّ.

أتاه الرد بصوت واضح وصارم:

- لقد تحدثت إلى قائدك المباشر وتم نقلك إلى جهاز المباحث الجنائية منذ لحظة اتصالي بك، الطريق لن ياخذ أكثر من ساعة؛ لذا تركت لك ساعة إضافية لتلملم أشياءك وتغادر على الفور بعد أن يتسلّم منك قيادة الكمين زميل لك أظنه سيكون أمامك خلال دقائق.. هناك سيارة تابعة للجهاز في طريقها إليك ريثما تكون جاهزًا للمغادرة.

ألقى صالح نظره إلى الطريق فوجد أحد زملائه قادمًا على عُجالة ليستلم منه قيادة الكمين، تعجّب من رؤية سيارة سوداء توقفت بالقرب من الكمين فهبط منها ضابط أعلى منه رتبة، تحدث بلسان مرتعش:

- هل يحق لي أن أعرف ما أنا مقبل عليه يا سيادة العميد؟

كان الرد صريحًا وقاطعًا:

- لا، ستعلم كل شيء عندما تكون أمامي.

أُغلق الهاتف من الطرف الآخر تاركًا صالح ينظر إلى كل ما يحدث حوله في عدم استيعاب، لكنه أعاد نظره إلى السماء وأمطارها وكأنه يلومها على كل شيء خاطئ يحدث له، ويبدو أنه ربط تلك الأجواء بمصائب تُزف إليه.

خلال نصف الساعة كانت السيارة السوداء تلتهم الطريق الأسود بسرعة كبيرة وبداخلها صالح الذي حاول إجراء مكالمة هاتفية مع والدته، لكن الضابط الأعلى منه رتبةً أخذ هاتفه الجوال وهو ينظر إليه بحزم:

- لا يمكنك التحدث عبر الهاتف الآن، التعليمات التي لديّ أن أرافقك حتى باب مكتب العميد عادل، وأن اتحفظ على هاتفك المحمول.

أراد صالح أن يتحدث، فأشار إليه:

- يجب أن تلتزم الصمت أيضًا حتى نصل إلى وجهتنا، أعلم أن لديك العديد من الأسئلة، لكن تلك هي الأوامر التي لديّ، وعلينا نحن الاثنان الالتزام بها بالحرف الواحد.

لم يتفوه صالح بكلمة، لكنَّ قلبه الذي يدق بقوة جعل الإدرينالين يصور له أنه في طريقة إلى مصيبة كبيرة لا مفر منها.

***

دخان كثيف يتراقص صعودًا من فمه مختلطًا ببخار الماء نتيجة برودة الطقس، انتظر حتى فرغ من سيجارته التي ألقاها أرضًا ثم دهسها بحذائه اللامع أسود اللون، وقف أمام العقار المنشود ونظر حوله في فتور، نظرة خاوية لا مدول لها، وكأنه لا يشعر بأن الامور تسير في اتجاهها الصحيح، هناك شيء خاطئ بكل تأكيد، حدسه لا يخطئ أبدًا، التف حول العقار فتأكد شعوره، جميع شبابيك الشقة مفتوحة على مصراعيها. مسح على رأسه وصعد في اتجاه الشقة التي تحوي جسد المجني عليه، توقف عند باب الشقة دقيقة ينظر إليه ويتفحصه، لا وجود لآثار العنف، أخرج مفكرته ودوّن ملاحظته الثانية بعد الشبابيك وكتب:

«هناك احتمالية لمعرفة المجني عليه بالجاني، أو على أقل تقدير لم يكن يبدو عليه الخطورة، ففتح له الباب بشكل طبيعي».

وضع القلم داخل المفكرة وأغلقها، ثم وضعها في جيب البالطو الطويل أسود اللون، خطا للداخل وتجاهل كل ما يحدث وكل الأشخاص من حوله من رجال البحث الجنائي والطب الشرعي، تحرك باتجاه الغرفة التي شهدت الجريمة، توقف عند المدخل ونظر إلى محتوياتها، الفوضى الكبيرة التي حلت بها، أوراق متطايرة في كل مكان وما زال بعضها يحوم داخل الغرفة، اقترب أحد رجال البحث الجنائي لإغلاق الشباك، فرفع صوته قائلًا:

- لا تفعل، أريد كل شيء كما هو، أكمل عملك دون أن تحرك أي شيء من مكانه.

لم يتفوه الشاب بكلمة ونفَّذ ما طُلب منه، أكمل طريقه إلى داخل الغرفة ونظر بتمعُّن إلى «الكاميرا» المثبتة على حامل ووقف خلفها، اقترب بإحدى عينيه، ثم نظر من خلالها فوجد الجثة في منتصف الكادر تمامًا، اقترب منه أحد رجال البحث الجنائي وأعطاه حاوية شفافة بداخلها صورة للقاتل برفقة المجني عليه، نظر إليها بتمعن ثم قام بقراءة ما هو موجود على ظهرها:

«سيكون هناك مزيد من القتلى إذا لم يتولَّ التحقيق الضابط صالح طارق»

أسرع فى اخراج مفكرته وكتب:

«القاتل يجيد التصوير، ولا يُستبعد أن تكون مهنته».

نظر حول الجثة فوجد آثارًا لحذاء وقد التصقت به الدماء، فدوَّن ما رآه وأغلق المفكرة، ظل ممسكًا بها، اتجه نحو الجثة الملقاة أرضًا ونظر إلى الطبيب الشرعي وهو يمارس عمله قائلًا:

- أريد تصورًا مبدئيًا.

اعتدل الطبيب الشرعي:

- عندما علمت أنك من كُلفت بالتحقيق في تلك القضية كنت على وشك أن أعتذر لولا أن مديري المباشر أصرَّ أن أتولى التشريح بأمر من العميد عادل نفسه، أنت بالتاكيد من ستتسبب في فصلي من عملي أو إرغامي على الاستقالة، عندما أرى اسمك على شاشة هاتفي يتحدث فمي رغمًا عني: «اللعنة! الرائد إسماعيل الريس، لا تجب»،

لكنني أجيب في نهاية الأمر مرغمًا.

لم يبدِ الرائد (إسماعيل) أي ردة فعل، بل ظل صامتًا حتى انتهى الطبيب الشرعي من كلامه ثم قال:

- هل ستتفاجأ عندما تعلم أنني من طلبتك بالاسم يا دكتور (نادر)؟

عمَّ الصمت لعدة ثوانٍ ثِقال على الطبيب، قطعها الرائد إسماعيل:

- جيد، أريد تصورًا مبدئيًا الآن.

خلع الدكتور نادر نظارته الطبية ومسح على وجه ثم ارتداها وقال وهو يعود بنظره إلى جثة الرجل:

- المجني عليه يدعى اسـ...

قاطعة الرائد إسماعيل:

- يدعى (أسامة) أحمد علوان، أربعون عامًا، لديه متجر لبيع الهواتف المحمولة، مُطلق، منفصل عن زوجته وأبنائه منذ ثلاثة أعوام، ميسور الحال، يعود كل يوم مخمورًا بعد أن ينتهي من سهرة حمراء طيلة الليل، أعلم كل هذه التفاصيل، هذا من صميم عملي، أنا أسال عن صميم عملك أنت.

تنهد الدكتور نادر متماسكًا ثم قال:

- التصور المبدئي عن سبب الوفاة هو قطع شريان رئيسي في الرقبة أدى إلى انهيار حاد في الدورة الدموية، وفي نهاية المطاف توقف القلب عن العمل، لكن قطر القطع داخل الرقبة ليس كبيرًا، هو

بالكاد قطع ذلك الشريان وجزءًا ضئيلًا بجانبه، مما يشير إلى معرفة الجاني بمكان الشريان من الأساس، وهناك كدمات متفرقة في الجسد نتيجة لكمات وركلات وصفعات عنيفة، القاتل يستخدم يده اليمنى؛ لأن القطع في الرقبة جاء من اليسار إلى اليمين أثناء وقوفه خلف المجني عليه وذبحِه... هذا هو التحليل المبدئي من الرؤية الأولى حتى الآن و..

لم يمهله الرائد إسماعيل المزيد من الوقت، كان قد دوَّن كل كلمة قالها نادر، التفت موليًا ظهره إليه وهو يقول:

- يومان على أقصى تقدير، يومان كي تكون جاهزًا بتقريرك النهائي، لا مزيد من التكهنات.

غادر الرائد إسماعيل الغرفة وظل يتجول داخل الشقة لبعض الوقت، ثم انتهى وغادر بعد أن دوَّن الكثير من الملاحظات وأجرى الكثير من التحريات مع الجيران والباعة حول العقار الذي كان يسكن فيه المجني عليه، أدار موتور سيارته وانطلق بها مسرعًا حيث معقله الذي يعشق، مكتب التحقيقات، مزيدٌ من الأحجيات تعني مزيدًا من الشغف بالنسبة إليه.

***

ليلة غزيرة الأمطار منزوعة القمر، وكأن الشيطان ألقى بعباءته السوداء فوق الكون ليضفي مزيدًا من الخوف في النفوس التي تتبعه، ومن أسفل ذلك الستار الأسود ظهر رجل أسمر البشرة، يرتدي معطفًا ثقيلًا أسود اللون، ويلف وجه كي لا تتضح سوى عينيه،

يتحرك في اتجاه منزلٍ معزولٍ وسط أرض زراعية نائية، توقف الرجل وطرق الباب عدة مرات، ثم انتظر أن يفتح له، فُتح الباب فاستقبله رجل يبدو عليه الغلظة، ارتفع صوته قائلًا:

- وصل الرجل الذي تحدث إليك في الهاتف يا أبي، أما زلت واثقًا مما تريد فعله؟

وقف رجل كبير السن مستندًا إلى عكاز، ثم اقترب من الرجل وحاول أن ينزع ما يلف به وجه، فأمسك بيده (مُنطِق الموتى) وقال:

- إن حاولت فعل ذلك سأرحل.

ظهرت معالم الغضب على الشيخ الكبير ونظر إلى أولاده الأربعة قائلًا:

- ألا يحق لي معرفة من الشخص الذي سيستنطق ابني؟

- أنا لا يحق لي يا شيخ أن أكشف عن هويتي، أنا لا أتقاضى أجرًا، ولا أسعى إلى المال أو الشهرة، أنا آتي بناءً على طلب أحدهم لمعرفة أمرٍ ما، ثم أرحل كما أتيت، وأقصد هنا الموتى، عهدي الزمني أن ألبِّي طلبهم، وأن أحافظ على هويتي، كما ألزمكم جميعًا بعدم الإفصاح عما سيحدث هنا.

أومأ الشيخ بالموافقة وأشار إلى أحد أبنائه أن يصطحب الرجل إلى الغرفة التي يقبع بها جسد ابنه الذي فارق الحياة منذ ساعات قليلة ويريد أن يعلم بشدة هل مات مقتولًا أم فقط فارق الحياة بهدوء دون أذيَّة، هو يشك في أحد أبنائه ممن هم متواجدون هنا

الآن، أخذ يجول بنظره فيهم ويتفقد وجوههم في لوم وخوف.

رافق (مُنطق الموتى) ذلك الشاب عبر رواق طويل يقع في نهايته باب الغرفة المنشودة، فتح له الباب وأشار إليه بالدخول ففعل، ضغط على مفتاح الإنارة فانفجرت المصابيح محدِثة ضجة مرتفعة رجفت لها القلوب، أتى الرجال ببعض من الشموع ووزعوها في كل مكان بالغرفة، اقترب رجل أسمر البشرة من جسد الشاب الملقى فوق سرير المرتفع عن الأرض قديم الطراز وقال:

- أريد منكم اثنين فقط ليمكثوا معي، اثنان كان يحبهم ذلك الشاب بشدة، وأريد من البقية أن يخرجوا ولا يدخل علينا أحد حتى أفرغ من استنطاق الشاب.

غادر الجميع في حنق، ولم يتبقَّ سوى الشيخ الكبير الغاضب والشاب الذي فتح له الباب والذي بدا عليه الخوف في بادئ الأمر، ثم تماسك عندما بدأ (مُنطق الموتى) في طقوسه فور أن اقترب من الشاب، غطى وجه المتوفى بقطعة من قماش حمراء اللون أخرجها من جيب البالطو، ثم جلس بالقرب من رأسه وأمسك بها قائلًا:

- ما سأفعله الآن سيظل سرًا بيننا نحن الأربعة، أحدنا لن يتكلم بعد اليوم إلا عند قيام الساعة، ومن سيتحدث عن الأمر سيفارق الحياة.

لم يتحدث الشيخ وابنه، بل آثروا الصمت، فأكمل الرجل أسمر البشرة وهو ممسك برأس المتوفى:

- أنا أتيت من أجل استنطاقك مرة أخيرة، استمع إليّ وإلى سؤالي وأجبني، ثم يمكنك بعدها أن ترحل بلا عودة.

أنهى كلماته المفهومة ثم تمتم ببعض الكلمات غير المفهومة وهو ما زل ممسكًا برأس الشاب الذي بدأ جسده في الاهتزاز وتحدثت شفتاه من أسفل قطعة القماش وقال:

- وأنا أسمعك لمرة أخيرة قبل أن أرحل بلا عودة.

اتسعت عين الشيخ فنظر إلى ابنه وهَمَّ أن يقف، فمنعه ابنه وأمسك به، شعر أنه على غير ما يرام وأن هناك خدرًا يسري في حواسه، نظر له (مُنطق الموتى) دليلًا على تنفيذ الاتفاق، فهدأ الشيخ وظل في مكانه، أخذ نفسًا عميقًا..

- أريدك أن تجيبني، هل ستفعل أم سأرحل؟

صمت الشاب لثوانٍ ثم قال:

- بل سأفعل.

***

يد تمتد إلى مشغلٍ للصوت حديث الطراز، ثم تضغط على واحدة من أشهر الموسيقى الكلاسيكية، خيال لرجل ضخم الجسد يتحرك بنشوة ويحرك يده كعازف للكمان، حائط عملاق مليء بالصور لرجال ونساء وأطفال من مختلف الأعمار، وفي المنتصف قناع غريب أسود اللون، يقترب صاحب الظل العملاق ويمسك بقلم ويضع علامة إكس على ذلك الرجل «أسامة» الذي وُجد قتيلًا داخل شقته منذ عدة أيام، ثم يتراجع ويلقي بالقلم أعلى مكتب مكتظ بالملفات، يكمل رقصه وتمايله على نغمات الموسيقى، وعندما تتعالى يقترب بأنفاس

تتسارع وتندمج مع الألحان من حوله، يحرك يده بسرعة إلى الصور الموزعة على الحائط كشبكة عنكبوتية بينهم أسهم وعلامات متناثرة ثم فجاة يتوقف عن الحركة ويشير إلى صورة إحدى الفتيات، ثم يتراجع إلى المكتب ويبدأ في البحث عن الملف الذي يحمل نفس الصورة حتى يجده، حينها تتوقف الموسيقى وتظل أنفاسه تتعالى.

يفتح أول صفحات الملف ويعود إلى مشغل الصوت ويختار معزوفة أخرى هادئة تلك المرة وكأنه فنان يستلهم أفكاره من المعزوفات، بينما هو يستدعي أحد شياطينه من أجل مساعدته في ارتكاب جريمة جديدة۔ وتلك المرة ستكون أشد قسوة وإيلامًا من سابقتها. وقف بجسده العملاق واقترب من مرآة عملاقة، لكنها متعرجة؛ لتعكس صورته الأشبه بمسخ يقف على قدمين لا تُبدي من ملامحه سوى أن له عينين تنتميان إلى سقر، وابتسامة تحمل في طياتها الهلاك.

***

فُتح باب الغرفة وخرج منها (مُنطق الموتى) بعد أن فرغ من عمله وسط ترقُّب من بقية العائلة في الخارج ومن خلفه خرج الشيخ مسرعًا ليمسك بتلابيب أحد أبنائه وهو يقول:

- وهل كانت آخر نساء الأرض كي تقتل أخاك بسببها؟ اللعنة عليك وعلى شيطانك الذي أغواك.

ارتبك الشاب وهو ينظر إلى الرجل أسمر البشرة في تعجب وخوف:

- أتصدق هذا الكذوب؟ إنه شيطان أتى كي يفرق بيننا يا أبي، لا

تصدقه، لقد انتهى ذلك الأمر منذ شهور، أنا لم أقتل حمزة.

تحرك (مُنطِق الموتى) إلى باب المنزل ثم التفت وقال:

- لقد أنهيت عملي، والآن يأتي عمل الشرطة، وهي من ستكتشف حقيقة ما أقول، لكنني لست كذوبًا، إنما أنت من سوَّلت لك نفسك قتل أخيك من أجل امراة أحبها وأحبته.

أنهى كلماته وغادر وسط تساقط الأمطار المنهمرة بشدة، خطا خطوات واسعة متسارعة وكأنه مطارد من كيان ما حتى وصل إلى سيارة سوداء قديمة تقف على بُعد أمتار من المنزل، فتح الباب ودخل مسرعًا، ازاح قطعة القماش التي كانت تخفي وجهه، وأمسك بالعديد من المناديل وبدأ في مسح وإيقاف نزيف أنفه الغزير، وبعد أن توقف نظر إلى انعكاس صورته حيث عينيه السوداوين وشعره المجعَّد وأنفه كبير الحجم وملامح وجهه الغليظة على عكس قلبه اللين، أمسك بزجاجة مياه وشربها في نهم كأنه لم يشرب من قبل أو ظل عطشًا لأيام، تحرك بالسيارة مبتعدًا، ثم توقف على بُعد عدة أمتار بعد أن شعر بخمول يجتاحه، فأسند ظهره إلى الخلف وأراح جسده، فسقطت جفونه رغمًا عنه وذهب في سبات عميق.

فتح عينيه على صوت قادم من بعيد، لكنه يبدو أنه قادم من أعماق نفسه، فزع وأخذ يلتفت يمنًا ويسارًا باحثًا عن مصدر الصوت، ثم هدأ ونظر إلى شعاع الشمس الذي يحاول جاهدًا اختراق الأفق بين السحب والغيوم الكثيفة، التفت ونظر إلى البيت في حزن، ثم أدار محرك السيارة وانطلق بها مبتعدًا، ترك الأرض الزراعية وخرج

على الطريق السريع ليجد بعضًا من سيارات الشرطة وأخرى من الإسعاف قادمة في الاتجاه المعاكس له، ظل يرمقهم في انعكاس المرآة حتى دخلوا إلى الطريق المؤدي إلى البيت المنعزل، وأكمل هو في طريقه.

***

وقف يعدل من ملابسه ويتأكد من مظهره العام وهو يحمل غطاء الرأس أسفل ذراعه، نظر إلى الضابط الذي يعلوه رتبة الماثل بجانبه فوجده جامد الملامح كما عهده طوال رحلة الساعة والنصف وصولًا إلى مكتب العميد (عادل)، مرت الدقائق ثقيلة مقلقة على قلب الشاب الذي لم يكن مؤهلًا نفسيًا أو عمليًا لتلك المواقف.

فُتح الباب وخرج منه عدد كبير من القادة ممن يحملون نسورًا على أكتافهم ويتبعها عده علامات أخرى جعلت قلب الشاب يطرق على قفصه الصدرى محاولًا الهروب من الموقف، تنحى جانبًا واضعًا غطاء رأسه في مكانه الصحيح مؤيدًا التحية العسكرية حتى فرغ المكان، أشار إليه الضابط أن يتقدم إلى الداخل، ابتلع ريقه وتحرك في اتجاه الباب الذي يقود إلى مكتب العميد عادل، وفور عبوره أغلق الضابط الباب من خلفه ووقف كحارس له.

تقدم صالح إلى الداخل بخطوات هادئة وبذهن شارد ليجد نفسه داخل رواق طويل وعلى جانبيه الكثير من الأبواب، شعر أن ذلك الرواق يأخذ في الطول إلى الأمام، لم يكن يعلم أي الأبواب سيطرق، فقرر التوقف مكانه منتظرًا ما هو مقبل عليه، فُتح أحد الأبواب

وخرج منه أحد الضباط وأشار إليه أن يتبعه ففعل، وصل به أمام باب ضخم كُتب عليه «العميد عادل عبد الظاهر»، طرق الباب وانتظر حتى سمع نفس ذلك الصوت الذي أتاه عبر الهاتف قائلًا:

- ادخل يا صالح.

فتح ذلك الضابط الباب لصالح وسمح له بالدخول ثم أغلق خلفه.. ظل واقفًا ينظر إلى ذلك الرجل طويل الجسد رغم جلوسه خلف مكتب عملاق، حاد العينين رغم عدم تلاقي الأعين فقد كان منشغلًا في قراءة ملف ما أمامه، ومن دون أن يتحدث أشار إليه أن يجلس، كاد صالح أن يتحدث، فأشار إليه من جديد:

- اجلس وانتظر حتى أنتهي من هذا الملف وأن تأتيك القهوة كما تحب أن تتناولها ثم نتحدث.

ضغط ذر استدعاء، فدخل أحد العساكر الذي يبدو أنه شديد الانضباط والاهتمام بهندامه ومظهره.

- أريد القهوة الخاصة بي وأخرى سادة للضابط صالح.

ظهرت ملامح التعجب على وجه صالح، ولأول مرة يرفع العميد عادل نظره إلى وجهه.

- أنا أعلم عنك كل شيء؛ من أنت، ما هي مؤهلاتك، صفاتك، عائلتك وعنوانك، حتى أعلم عن تلك الحادثة في الماضي، لا تتعجب.

أراد أن يتحدث، لكن لم يعطِه العميد فرصة مستكملًا:

- ولا تتسرع في الحديث، اختبئ خلف لسانك هكذا آمَن في كل

بداية، تلك نصيحة مجانية من شخص لا يحب أن يعطي النصائح.

أحكم صالح الصمت وجلس يترقب تلك الغرفة الفسيحة وما تحويه من طاولة اجتماعات عملاقه بها ما يزيد عن عشرين كرسيًا وشاشة عملاقة، مكتبة بها المئات من الكتب والملفات، حائط معلق عليه إنجازات وتكريمات للعميد عادل، وصور تجمعه مع القادة في مراحله المختلفة من العمر، نياشين وقصاصات من الجرائد قديمة الإصدار، لوهلة شعر بمدى صغر حجمه أمام ذلك الشخص القابع على الطرف الآخر من المكتب، لكنه أراد بشدة أن يصبح ذات يوم مثله، أو أن يتخطى ما وصل إليه إن استطاع، وهنا اختفى توتره وحلَّ محله الشغف.

دقائق ودخل العسكري وهو يحمل صينية تحوي فنجانين من القهوة وزجاجتين من المياه وضعها بهدوء على المكتب وغادر مسرعًا، انتهى العميد عادل من قراءة الملف ثم أعطاه لصالح الذي أمسك به في عدم استيعاب ثم قال:

- اشرب قهوتك، ثم يمكنك الرحيل مع ذلك الملف، أريد منك أن تقرأه بتمعن وبعدها نتحدث، لدي الكثير من الأسئلة أريد منك أن تجيبها، وأعلم أن لديك مثلها، عامة، أريد منك ردًا سريعًا قبل أن أضمك إلى فريق التحقيق، فقد كلفت الرائد إسماعيل الريس فور أن وصلني هذا الملف وعلمت أننا مقبلون على قضية ليست بالهيِّنة.

أومأ صالح بالموافقة ثم أمسك بفنجان القهوة وأخذ رشفة، وقد لاحظ العميد عادل أن يده ترتعش، فرسم ابتسامة على شفتيه وتركه

يفرغ من قهوته وعاد هو لقراءة ملف آخر.

***

يومان من الجهود المكثفة والتحقيقات والتحريات أجراها الرائد إسماعيل، لكنها لم تؤتِ ثمارها بعد، مدة ليست بالقليلة غرق بها بين الملفات، وتفريغات «الكاميرات»، وتقارير البحث الجنائي، كل شيء كان يقود إلى احتمال مختلف عن الآخر، أطراف كثيرة لخيوط قد تقود في نهايتها إلى حائطٍ سد بُني من الجليد، أحد تلك الخيوط فقط هو ما سيقوده إلى الجاني. أخرج مفكرته وضمها إلى بقية محتويات سطح مكتبه، هناك قطعة هامة ما زالت مفقودة أو منقوصة، تقرير الطب الشرعي.

ما زال في انتظار ذلك الغبي الدكتور نادر المتقاعس شديد الأهمية في حل معظم القضايا التي عمل عليها في السابق، والذي على ما يبدو يكره عمله، لكنه يحب التفاصيل حد الثمالة، يخشى الدماء، لكنه يتمكن من إيجاد الخيوط دائمًا مصبوغة بلونها الأحمر، اختاره وأصر على وجود لأه يعلم أنه موهوب في عمله مثله تمامًا، الاثنان شديدا التباين، لكن لديهما شيئًا وحيدًا مشتركًا وهو الشغف، الشغف الذي يقودهما إلى قضاء الساعات والأيام والشهور دون كلل أو ملل من أجل الوصول إلى الحقيقة، الشغف هو الوقود الذي لولاه لخطّا استقالتيهما منذ زمن بعيد.

غرق بأفكاره حتى وصلت إلى الترقوة وكادت أن تغرقه لولا أنْ طرقَ الباب فانتبه والتفت إلى الطارق، فُتح الباب فظهر من خلفه

الطبيب الشرعي نادر بوجه مرهق وعينين حمراوين من أثر الإجهاد، دخل المكتب وأغلق الباب، ثم جلس ووضع ملفًا يحوي تقريره أعلى المكتب، نظر إليه الرائد إسماعيل، ثم أمسك بالملف من دون أن يتحدث، استغرق دقائق في القراءة أشعل خلالها سيجارة وأخذ يدخنها في شراهة، ثم انتهى من القراءة قائلًا:

- لا جديد يُذكر ولا فائدة من استغراقك ليومين كاملين من أجل ذلك التقرير العقيم.

خلع الدكتور نادر نظارته ومسح على وجهه ثم قال:

- الوجه الآخر من التقرير هناك المزيد، اقرأه ثم أصدِر أحكامك.

لوهلة شعر إسماعيل أنه تسرَّع في كلماته الجارحة كالسيوف وأمسك بالورقة وقلبها ليجد عدة سطور إضافية، قراها بتمعُّن، ثم قال:

- في تلك الحالة أسحب كلماتي وأشكرك على مجهودك ومهنيتك يا دكتور نادر.

تعجب نادر من تلك الكلمات وقبل أن يتفوه بكلمة...

- لكنني أنتظر منك نفس التفاني في القضايا المقبلة، تلك القضية ستشهد الكثير من الجثث والضحايا، يمكنك المغادرة وانتظر بجانب هاتفك، نحن فقط في بداية الصراع مع القاتل، ما زال لديه الكثير في جُعبته، وما زال لدينا عمل شاق، أنا، وأنت، ومن سينضم إلينا خلال أيام.

وقف نادر ووضع نظارته أمام عينيه، ثم رحل في صمت وأغلق خلفه الباب. وقف إسماعيل واتجه إلى شباك المكتب وفتحه لتصفعه أيادي الرياح الباردة، سرت في جسده رعشة جعلته يشعر بالوحدة والإرهاق معًا، تذكر زوجته (جميلة) التي لم يعد يراها إلا قليلًا، زوجته التى وعدها أنها ستكون في غاية السعادة برفقته ولم يكن يعي أنه قطع وعدًا لن يستطيع الوفاء به، فتحولت حياتهما إلى روتين من الصمت والترقُّب يتخللها بعض من الاهتمام من طرف واحد، وبالتأكيد ليس هو ذلك الطرف.

أخرج هاتفه الجوال وبحث عن رقمها فوجدها في نهاية القائمة، نظر إلى الساعة التي تشير إلى الحادية عشرة مساءً، تردد أن يتصل بها في ذلك الوقت لعلها تكون نائمة بعد يوم شاق من العمل كطبيبة أطفال، أخذ نفسًا ثم قرر ألا يزعجها، أو بمعنى أصح ألا يزعج نفسه بكلمات ينطقها لسانه لن تكون نابعة من قلبه، فوضع الهاتف داخل سترته وأكمل عمله.

هناك ذكرى عالقة يأبى العقل سرد كل تفاصيلها، لكنه أيضًا يرفض تركها للنسيان، فقط من لديه الشجاعة سيبدأ في البحث وسيترك العنان للقدر لمشاركته أسراره... جيد أنك ما زلت هنا، أريد منك أن تستمتع فيما هو قادم، لا تقلق، سيحين وقت مشاركتك الفعالة، صدقني، أنا لا أكذب، أريدك لسبب سوف أخبرك به لاحقًا، وأنت تريد أن تكمل لسبب أنا أعلمه جيدًا، الفضول، أليس كذلك؟ أنا على حق، جيد... لنكمل.

(2)

إضاءة خافتة قادمة من أباجورة موضوعة أعلى مكتب كبير الحجم مزدحم بالعديد من الملفات والأوراق المتناثرة يمينًا ويسارًا، الكثير من التردد واضح على ملامحه وهو يقرأ الملف الذي كُلِّف بدراسته وإبداء قرار نهائي وقاطع فيه.

جلس صالح داخل حجرة والده الصحفي الكبير الراحل (طارق محمود)، الرجل الذي عُرف بمحاربته للفساد، والبحث خلف الحقيقة باستماتة حتى آخر أيامه، نظر صالح إلى صورة قديمة لوالده في سن مبكرة فوجد التشابه الكبير بينهما، ثم وجد جريدة قديمة تنشر خبر وفاته عبر حادث مأساوي ونجاة طفله الوحيد، غصة ألكمت حلقه فأمسك بكوب الماء وشرب منه وعاد لقراءة الملف بعد أن أبعد الجريدة عن ناظره، طرق أحدهم الباب ففتح لتظهر أمه التي تحتفظ بجمالها رغم تخطيها سن الخمسين وهي تحمل صينية موضوع أعلاها عدة أصناف من الطعام، اقتربت فوقف مسرعًا وحمل عنها الصينية ووضعها على المكتب بعد أن افسح لها مكانًا بصعوبة.

جلست الام ونظرت إلى صالح الذي حاول جاهدًا أن يتملص من نظراتها المتفحصة فقالت:

- أرى أنك تسلَّمت أول قضية لك كضابط مباحث، لو كان والدك هنا لشعر بالفخر، لكنني أشعر أن هناك أمرًا ما لا تريد إخباري به، أليس كذلك يا حضرة الضابط؟

رسم صالح ابتسامة زائفة سهلة الكشف، وتعمَّد أن يتناول بعضًا

من الطعام إرضاءً لها، انتظرته أن ينتهي من تمثيله الرديء ثم قالت:

- لا بأس إن لم ترد إخباري بحقيقة ما يحدث معك، وأتفهم أن هناك أسرار عملٍ لا يمكنك إفشاؤها، كل ما يهمني أن تكون على ما يرام، وأن تعي جيدًا أنني هنا من أجلك إذا احتجت إليَّ، تمامًا كما كنت أفعل مع والدك في الماضي، سأغادر الآن، وعندما تريد الحديث أنا في غرفتي.

طبعت قبلة على رأسه بعد أن وقفت، ثم احتضنته وهي تشعر بخوف يحوم حول قلبه، فرفعت رأسه بحنان:

- أنت تشبه والدك للغاية، وقد كُتب عليك أن تفعل ما كان يفعله، أن تسير في نفس الدرب، أتذكَّر نظراته وطريقته وتمثيله الفاشل الذي يسهل كشفه مثلك تمامًا، أعلم أن هناك ما يشغلك ويؤرقك، لكنني أؤكد لك أن الهروب من القدر مستحيل، افعل ما يتحتم عليك فعله دون تردد، فالتردد مقبرة الرجال.

أنهت كلماتها وغادرت غرفة المكتب وأخذت معها ما تبقى من الطعام، وقف وأغلق الباب، ثم عاد للجلوس خلف المكتب لدقائق يفكر، ثم أمسك بهاتفه الجوال وبحث عن رقم العميد عادل واتصل به، وعندما أجاب قال:

- أعتذر للاتصال في هذا الوقت المتأخر من الليل، لقد قرأت الملف، وحقًا لا أعلم أي شيء عن مرتكب الجريمة، ولا أعلم السبب الحقيقي عن طلبه الغريب لي بالاسم لتولِّي التحقيق والبحث خلفه، أنا أتفهَّم أنك تريد مني أن أشارك في التحقيق، لكنك تركت لي القرار، وقراري

هو أنني لست مؤهلًا لتولِّي مثل تلك القضايا، خبرتي قليلة و...

قاطعة صوت عادل الناعس وقال:

- أنا أتفهم، في الغد ستُكلف بقضية أخرى تحت إشراف ضابط أكثر منك كفاءة وخبرة، تصبح على خير، وأتمنى ألا أرغمك على المشاركة فيما هو قادم.

أُغلقت المكالمة من الطرف الآخر، فوضع صالح الهاتف على المكتب وتنفَّس بعمق وكأنه كان غارقًا والآن أصبح على أحد الشواطئ ويمكنه التنفس كما يحلو له، جبل عملاق أُزيح من على صدره، عاد بظهره إلى الخلف، وأمسك بصورة والده، ثم مسح عليها، احتضنها وذهب في سبات عميق.

***

ضحية مشتعلة تدفن واحدة تلو الأخرى داخل مثواها الأخير، دخان كثيف يتصاعد من فمه وفي أوجه من يجلسون أمامه. انتهى من آخر سيجارة وبحث داخل العلبة عن واحدة إضافية فلم يجد، ضم قبضته على العلبة وألقاها جانبًا وهو يقول:

- وهل من المعقول أن أصدق أن طليقك أسامة لم يزُر أبناءه أو يلتقي بهم منذ شهرين؟ إن كذبتِ سأعرف بكل تأكيد وستضعين نفسك محل شك، أريد الحقيقة كاملة بكل تفاصيلها، متى آخر مرة التقيتِ بالمجني عليه؟

شعرت بالتوتر وبدا على وجهها الخوف من زوجها الحالي الذي

يجلس في الكرسي المقابل لها ويضع ضمادة على مؤخرة رأسه، فهم الرائد إسماعيل أن لديها ما تقوله، لكنها تخشى الحديث أمام زوجها لأن الموقف سيكون شائكًا تمامًا؛ أن تتحدث عن المجني عليه، والذي كان زوجها منذ فترة ليست بالبعيدة، أمام زوجها الحالي. طلب إسماعيل من الرجل أن يمكث بالخارج، وقف وظل ينظر لها بغضب محذرًا، ثم امتثل وخرج على مضض.

نظر إسماعيل إلى السيدة التي تجلس وقد بدت عليها الأريحية:

- الآن أخبريني بكل شيء.

تنهدت وشعرت بالتردد ثم قالت:

- أسامة زارنا منذ أسبوع وتشاجر مع (إبراهيم)، نشب بينهما عراك أدى إلى الجرح الموجود في رأسه الآن، بعدها تجمَّع الجيران وفضوا بينهما، توعَّد إبرهيم أسامة وقال إنه سيقتله أو يرسل من يتكفل بذلك الأمر.

مسح الرائد إسماعيل على رأسه المصبغ بحمرة الإرهاق متسائلًا:

- هل تعتقدين أن إبراهيم قادر على تنفيذ تهديده؟

صمتت لعدة ثوانٍ ثم قالت:

- لا أعتقد أنه قادر على ذلك، هو رجل طيب رغم عصبيته الواضحة، تزوج من امراة لها ماضٍ وأطفال، أحسن معاملتنا وعطف على أطفالي، لكن أسامة لم يتركنا في حالنا منذ زواجنا ودائمًا ما كان يسعى إلى تحطيمنا والتفريق بيننا لإجباري على العودة إليه.

رسم الرائد إسماعيل ابتسامة على شفتيه قائلًا:

- أنا متعجب حقًا، لماذا تخبرينني بتلك المشاجرة إذا كنتِ متأكدة من عدم قدرته على القتل؟

اعتدلت في جلستها.

- أنا لم أرَ إبراهيم في تلك الحالة من قبل، لقد تحدث بكل جدية، وبعدها بعدة أيام مات أسامة، شعرت أنَّ عليَّ التحدث.

نظر الرائد إسماعيل ناظرًا إلى عينيها مباشرة مستفسرًا:

- هل هذا كل شيء؟

دمعت عيناها فارتفع صوته:

- هل يضربك بشدة؟ إنه يهددك بقتل أطفالك أليس كذلك؟ أنتِ تريدين التخلص منه؟

ظهر التوتر جليًا على وجهها مشبعًا بالخوف والإنكار، حاولت التحدث، لكنه لم يمهلها:

- أنا أعتقد أنك من افتعلتِ المشكلة، أنتِ من اتصلتِ بطليقك كي يأتي في ذلك اليوم وتعلمين العواقب، من السهل مراجعة سجل الاتصال الخاص بكِ وإثبات شكوكي، لكنني اكتشفت الآن أنك أنتِ من دبر للقتل وقمتِ باستغلال تهديد زوجك له، أليس كذلك؟ هل أنا على حق؟

أخذت تومئ برأسها نفيًا وهي تبكي بشدة، فارتفع صوته:

- حضرة الأمين (أشرف).

دلف من الباب أمين شرطة ضخم الجسد، وقف مؤديًا التحية العسكرية منتظرًا الأوامر التي ستوجه إليه...

- اصطحِب هذه السيدة إلى الحجز لحين الانتهاء من سماع أقوال بقية الشهود، ثم نأمر بعرضها على النيابة للتحقيق معها.

أمسك الأمين أشرف بـ (حنان) طليقة المجني عليه، ثم سحبها إلى الخارج وهي تردد تلك الكلمات:

- لم أقتله، والله لم أقتل أسامة، أنا بريئة، أنا لم أقتله... أريد رؤية أبنائي، صدقني أنا لم أقتل أحدًا.

ظهرت معالم الغضب على وجه الرائد إسماعيل الذي اتجه إلى الشباك وفتحه فتخللت أشعة الشمس الغرفة، أخذ نفسًا عميقًا ملأ به صدره ثم زفره في عدم رضًا وحدث نفسه قائلًا: «هناك شيء خاطئ، تلك المرأة لم تقتله، أنا أشعر بذلك داخل عظامي».

طرق الباب ودخل الأمين أشرف:

- هل ندخل إبراهيم الآن أم ننتظر؟

عاد إسماعيل وجلس خلف مكتبه:

- أدخله الآن، واطلب لي فنجان قهوة وعلبة سجائر في عجالة.

خرج الأمين ودخل من خلفه إبراهيم، يبدو عليه الخوف وعدم الاستيعاب لما حدث مع زوجته حنان، أشار إليه أن يجلس قائلًا:

- أنا لا أريد المراوغة؛ فأنا في مزاج سيئ للغاية، أخبرني بكل شيء تعرفة الآن وبالتفصيل.

***

منزل بدائي معزول ومتوارٍ بين جذوع النخيل، محاط بسياج من خوص وبوابة خشبية عتيقة محكمة الغلق بقفل صدئ، وبالقرب منه تقف سيارة سوداء، نار مشتعلة قادمة من موقد وُضعت فوقه كنكة تفوح منها رائحة القهوة، وعلى بعد مترين يجلس (خالد) ذو الخمسة وعشرين عامًا وهو ممسك بكتاب أسود اللون غريب الشكل مكتوب عليه «علم استنطاق الموتى»، لقد قرآه عشرات المرات من قبل، ولكنه يريد دائمًا أن يرسِّخ ذلك العلم داخل رأسه، ألقى بنظره إلى الكنكة محاولًا تفادي فورانها المفاجئ، فوجد الهدوء سائدًا، ثم عاد إلى القراءة من جديد وهو ينطق ما يقرأه:

«إن لم يكن الجسد بدون رأس، فلا فائدة من المحاولة، يجب العثور على الرأس المنتمي للجسد أولًا، واذا كان الرأس وحده موجود فسيكون الاستنطاق صعبًا للغاية، لكنه ليس مستحيلًا».

أغلق الكتاب ولحق القهوة قبل أن تفور، ثم صبها فى فنجان أسود اللون تتخلله شعيرات ذهبية وكأنها نيران مشتعلة أسفل سماء مظلمة، نظر الى الفنجان متسائلًا عن مدى تعلقه به فلم يجد إجابة مُرضية، وضع الكتاب داخل مكتبة كبيرة الحجم تحتل نصف مساحة الحجرة التي يجلس فيها، ثم أخذ فنجان القهوة واتجه إلى شباك خشبي مُعالج بعدم حرفية فتظهر منه فروق كثيرة يمكنه الرؤية من

خلالها.

اقترب بأنفه الضخم من القهوة واستنشق رائحتها النفاذة، ثم تمتم ببعض الكلمات وبدأ بالشرب وهو في غاية الاستجمام والهدوء الذي قطعهم صوت نباحٍ لكلب قادم من منتصف البيت وعلى بعد خطوات قليلة منه، تصلَّب جسده ووضع الفنجان أعلى المنضدة الخشبية، ثم نظر إلى مصدر الصوت فوجد كلبًا عملاقًا يقف في المنتصف ينظر له بعينين حمراوين، وأنياب يتساقط من بينها اللعاب، متاهبًا للانقضاض عليه، اعتدل خالد ببطء ووقف في هدوء، وقبل أن ينقض عليه ذلك الكلب اشتعل جسده وأصبح رمادًا متطايرًا، ثم ظهر من خلفه كيان ما مظلم غير واضح الملامح، فضَّل أن يمكث داخل الظلام، ثم رفع يده في اتجاه خالد قائلًا:

- أنت (مُنطِق الموتى)، عليك أن تكون أكثر حذرًا، في المرة المقبلة لن أكون هنا لإنقاذك، لا تنسَ إغلاق دائرة الملح من جديد، وأرجوك كف عن التوسع في علومك، انت لست مهيأً الآن لمعرفة ما سيحدث، يكفيك معرفة ما حدث، أنا لا أقصد الكتب التي أعطيتك إياها في الماضي بما فيهم ما تقرأه الآن، أنا أقصد الكتب التي تحاول إيجادها داخل عالمي، لا تعتقد أن الحراس حولك من أجل حمايتك فقط ففى النهاية أنا سيدهم.

عاد ذلك الكيان إلى الخلف، ثم ابتلعه الظلام، تحرك خالد مسرعًا وخرج من البيت، أمسك بكيس يحتوي على مسحوق أبيض وأخذ يدور به حول المنزل والسياج من الخارج مكونًا دائرة صغيرة بداخل دائرة أكبر منها، ثم عاد إلى الداخل وأغلق الأبواب وكوَّن دائرة من

الملح حول المكان الذي يجلس فيه.

في الخارج، وحول الدائرة الأولى خلف السياج، وقف عدد كبير من الكلاب العملاقة سوداء اللون محاولين العبور وهم ينبحون بشدة، ومن يتخطى الملح يحترق، جاء صوت صراخ مرتفع جعل جميع الكلاب ينسحبون، لكن تلك الصرخة كان لها وقع الفزع في قلب خالد الذي ظل يتمتم ببعض الكلمات داخل المنزل وهو ينظر من بين الفروق في الشباك إلى الكيانات المظلمة في الخارج وهي تتراجع مصدرة أصواتًا مفزعة.

***

سفرة ممتلئة بالطعام تجلس على أحد كراسيها فتاة بوجه مستدير وعينين خضراوين وشعر بني متوسط الطول لترسم لوحة من الجمال، تنظر الى صالح بود وحب وهو يتجاذب أطراف الحديث مع والدها الجالس على رأس السفرة في عدة موضوعات مختلفة، تشعر أنها كانت موفقة للغاية في اختياره لها كشريك حياة مستقبلي، فهو في نظرها نسخة مصغرة من أبيها الذي تعشقة حد الثمالة، وتشعر بالأمان معه كزوج يمكنها بناء أحلامها وطموحها على كاهله من دون شكوى أو جذع.

لاحظت أمها التي تشبهها تمامًا لولا بعض الشعيرات البيضاء التي تخللت اللون البني، والقليل من التجاعيد التي اختلطت بصفائح وجهها الرقيق أبيض اللون، علمت أن ابنتها (لمى) غارقة في نهر الحب من أخمص قدميها حتى أعلى رأسها العنيد، فقد كانت رافضة

لفكرة ارتباط ابنتها الوحيدة بضابط شرطة؛ نظرًا لصعوبة الحياة التي هي مقبلة عليها، فلن يكون هناك متسع من الوقت لأي شيء سوى بضع دقائق في كل يوم بعد أن يفرغ من عمله ويعود مرهقًا متأهبًا ليوم جديد من المشقة.

أحبت صالح بشدة؛ فهو شاب وقور جميل الطلة، ذو طباع هادئة وتربية حميدة، لكن رفضها لم يكن لشخصه، بل لطبيعة عمله، ومع إصرار تلك العنيدة وافقت مع تمسك الأب بأحقية لمى في اختيار شريك حياتها المقبل دون تدخل من أحد، وبالفعل تمت الخطبة بعد يوم من ترقية صالح إلى رتبة ملازم أول منذ عدة شهور مضت، والآن هو جالس على سفرتها أمام ابنتها المتيمة به وزوجها الذي يرى فيه ابنه الذي لم يُرزق به، وعليها الآن أن تتعايش مع الوضع الراهن بصدر رحب، وتقبل ذلك الشاب الذي يتمتع بذكاء لرؤية حقيقة مشاعرها تجاهه، لكنه ومع عمله بتلك الحقيقة إلا إنه يعاملها كأم له من دون تكلُّف، مما جعل قلبها يرق ويتقبل وجوده.

فرغوا جميعًا من الطعام واصطحب الأب صالح إلى حديقة الفيلا كي يكملا حديثهما أثناء شرب القهوة، اقتربت الأم برفقة لمى وهما يحملان الشاي والقهوة وقالت الأم:

- رشاد، ألا يكفي الحديث مع صالح وترك المجال لابنتك لخطف بعضًا من الدقائق برفقة خطيبها؟

التفت (رشاد) إلى زوجته التي تقدمت ووضعت القهوة أمامهما، ثم قال وهو يقبِّل يدها:

- أنتِ تعلمين جيدًا أنني أرى في صالح ابني الذي لم أُرزق به، وأحب أن أتحدث إليه كثيرًا، وآخذ رأيه في أشياء عديدة؛ لديه عقل فطِن ورأي راجح.

ابتسم صالح ونظر بود إليه، بينما جلست بجانبه لمى وأمسكت بفنجان القهوة وناولته إياه، فشكرها وبدأ في تناولها، مرت دقائق وأقبل الليل وترك الأبوان صالح ولمى يجلسان بمفردهما.

- أريد أن أخبرك شيئًا، لكني لا أريدك أن تنفعلي.

اقتربت منه وأمسكت بيده فشعر كلاهما بكهرباء باردة تجتاح جسديهما، شعور يتكرر كلما حدث ذلك الأمر، ضحكت أعينهما وتنفس قلبيهما:

- أي شيء؟ يمكنك إخباري بأي شيء.

تنهد وتردد قليلًا ثم قال:

- لقد تم نقلي إلى جهاز المباحث الجنائية.

صمت وظل يلاحظ تغيرات ملامح وجهها، وقبل أن يكمل..

- وما المقلق في ذلك الأمر؟ ما الذي يستدعي انفعالي؟ هذا أمر وارد الآن أو بعد ذلك، ادخل في صلب الموضوع يا حضرة الضابط.

مسح على وجهه الذى صُبغ بحمرة تحدث عندما يشعر بالخجل أو القلق.

- لم يكن ذلك القرار بموافقتي، بل كان أمرًا مباشرًا، هناك قاتل

مخبول ارتكب جريمة قتل والتقط صورة مع الضحية قبل أن يفارق الحياة، وخلف تلك الصورة كتب طلبًا غريبًا، طلب أن أتولى أنا التحقيق، ذكرني بالاسم، وعندما وصلت تلك الصورة إلى القيادات تم نقلي، وخُيِّرت أن أتولى التحقيق في تلك القضية أو أرفض.

تغيرت ملامحها التي تخللها الخوف:

- وماذا كان ردك؟

قالها بسرعة:

- بالطبع رفضت.

تشبثت بيده، احتضنت ذراعه واختبأت في صدره كطفلة صغيرة..

- ابتعد عن تلك القضية، رجاءً، نحن لا نعلم كيف يفكر هؤلاء المرضى، أرجوك أن تأخذ حذرك، عِدني بذلك.

احتضنها وحاول طمأنتها.

- أعدك... لكن عليكِ أن تعديني أن لا تخبري أحدًا.

رفعت عينيها ونظرت إليه برجاء، فرسم ابتسامة على شفتيه ومسح على شعرها في ود، من خلف زجاج أحد الشبابيك كانت الأم تنظر إليهما بقلق، وسرعان ما أغلقت الشباك فور وصول رشاد.

- عليكِ أن تثقي بابنتك يا غادة أكثر من ذلك، اتركيها تفعل ما تريد، دعيها تعيش حياتها بطريقتها، أن تتعلم أن للحياة أوجهًا عديدة، ومن ضمنها القلق والخوف.

التفتت (غادة) إليه وقد ظهر على وجهها القلق:

- ذلك الشاب أكثر من مثالي، الاثنان في غاية الجمال والتناغم سويًا، المخيف في تلك الحياة أن نهاية كل شيء ستكون في غاية الفزع والألم.

أنهت كلماتها وتركته واتجهت إلى السلالم التي تقود إلى الحديقة كي تعلن أن وقت الجلوس منفردَيْن قد انتهى، وأن على هذا الشاب أن ينهى الزيارة ويغادر إلى منزله.

***

شابة في العقد الثالث من عمرها، ممسكة بهاتفها الجوال الذي يعرض «فيديو» لها وهي تتراقص بشكل مستفز وخليع على أحد تطبيقات مواقع التواصل الاجتماعي، تصدر منها ضحكة مرتفعة عندما ترى تعليقًا لأحد الشباب وهو يغازلها ويتمنى قضاء ليلة حمراء برفقتها مقابل أي ثمن، ويرسل لها مكافأة من المال مقابل جمالها وحثها على المزيد من الرقصات الأكثر جرأة، تغلق التطبيق وتفتح حسابها البنكي لترى تدفق الأموال والتحويلات على حسابها مقابل تلك «الفديوهات» الخليعة التي تقوم بإظهار مفاتنها فيها، حينها أصدر جرس الباب صوتًا، فاتجهت إلى باب الشقة وتنظر عبر العين لترى عامل توصيل الطلبات يحمل الطعام الذي طلبته، لكنه جاء متاخرًا فكان عليها توبيخة، فتحت الباب وهي تسبُّه وتكيل له الكلمات النابية، لم يتفوه عامل توصيل الطلبات بكلمة وظل مختبئًا أسفل غطاء الرأس، اقتربت منه وانتزعت الطعام من يده ثم ألقت

النقود في وجهه، وقبل أن تغلق الباب وضع ذلك العامل قدمه فأعاق غلقه، تعجبت من فعله وهمت أن تسبه من جديد، لكن ارتطام الباب بوجهها أطاح بها أرضًا وجعل الدماء تتساقط من بين شفتيها، التفتت فوجَّه إليها العامل لكمة أفقدتها الوعي.

***

موسيقى هادئة قادمة من أحد العازفين على آلة الكمان، يتوسط بهو أحد المطاعم الفاخرة على ضفاف النيل، بحذر نظر إليها، رأى عينيها تلمع مع تباين اللحن الممتع، ابتسم وأمسك بيدها وقبَّلها، تفاجأت من فعلته؛ فهو لم يكن رومانسيًا قط، نظر إلى عينيها ونظرت إليه، شعر أنه يتعرف عليها للمرة الأولى وأنها لم تكن زوجته التي عاشت معه لسنة كاملة، سنة في جحيمه الخاص، لكنها تحملته، تحملت شحَّ مشاعره، وتحجُّر قلبه، وتبلُّد عواطفه، أراد أن يبدأ معها صفحة جديدة، قصة مختلفة، بداية نقية كنقاء روحها التي لم تتاثر بمدى فجاجته، قطع من وقته الثمين وحجز طاولة في هذا المطعم الراقي، انتهى العازف وعمَّ التصفيق أرجاء المطعم، تقدم النادل برفقة زملائه ووضعوا أصنافًا من الطعام على الطاولة، كانت مثل الطفلة؛ بريئة، جميلة مثل اسمها، مقبلة على الحياة، تفاعلها الفطري وسعادتها بأبسط الأمور جعلته يلاحظ مدى قسوته، تناولا الطعام سويًا في هدوء وود وتبادل للنظرات والابتسامات حتى شبعا بطنًا وقلبًا، طلب لها مشروبها المفضل وطلب قهوته الخاصة وترك العنان لها كي تبوح وتتحدث؛ فقد طال صمتها رغمًا عنها.

قالت وهي تنظر في عينيه:

- أشعر أنك شخص مختلف، عندما أخبرتني أنك ستمر عليَّ في العيادة اعتقدت أنك فرغت من عملك باكرًا وتريد أن تستريح لتكمل عملك باكرًا في اليوم التالي ولم أكن أتوقع أنك تحضِّر لهذه المفاجأة، أنا في غاية السعادة، ما الذى حدث لك يا إسماعيل؟ ما الذي تغير؟

أمسك بيدها وربت عليها بحنان.

- اشتقت إليكِ يا جميلة، أعلم أنني كنت مقصرًا في حقك للغاية، لقد تحملتِني عامًا كاملًا من دون شكوى، لقد كنت فظًا، منفِّرًا، والآن سأكف عن كل تلك الحماقات وأعطيكِ ما تستحقينه مني، وهذا أقل ما يمكنني تقديمه لكِ دليلًا على حبي وامتناني.

أشرق وجهها وتلوَّن بحمرة الخجل، وضعت يدها الأخرى أعلى يده وقالت:

- لديَّ أمر هام أريد إبلاغك به منذ يومين، لكنك كنت مشغولًا.

ابتسم قائلًا:

- وأنا منصت.

- أنا أريد أن أخبرك أنك...

قاطعها اهتزاز هاتفه الجوال الذي أصدر صوتًا رخيمًا، أشار إليها أن تنتظر لحظات، أخرج هاتفه ليجد رقم الأمين أشرف، أجاب لتبدأ ملامح وجهه في التغير، ثم وقف منتصبًا ووضع بعضًا من النقود على الطاولة، ثم جذبها من يدها وهو يقول:

- يجب أن أرحل الآن، هناك أمر طارئ، أعتذر لكِ يا جميلة، سأقوم بتوصيلك إلى المنزل، ثم أتجه مباشرة إلى العمل، ويمكننا التحدث في المنزل عند عودتي.

انتزعت يدها من يده وهي تشعر بتفتت قلبها لأجزاء صغيرة، وقالت محاولة التماسك:

- أعرف كيفية الوصول إلى المنزل، لا داعي للقلق، اذهب أنت إلى عملك، لكن أرجوك لا تتأخر، أريد التحدث معك في أمر هام.

ابتسم لها ثم تركها وغادر المطعم مسرعًا.

سقطت دموعها رغمًا عنها، ثم تبعته إلى الخارج، نظرت إليه وهو يقود سيارته وينطلق بها مسرعًا غير عابئ بها، فهمت أنها لا شيء سوى زوجة له، هو يملك قائمة طويلة مزدحمة وتأتي هي متزيلة تلك القائمة، أشارت إلى سيارة أجرة فتوقفت، ركبت السيارة وانطلقت هي الأخرى إلى المنزل.

فور تحرك السيارة الأجرة كان هناك من يراقبهما ويتحرك بسيارته خلفهما وهو يستمع إلى مقطوعة موسيقية شهيرة وينظر إلى انعكاس عينيه الغليظتين في المرآة.

***

شارع ضيق ينتمي إلى أحد المناطق الشعبية، باعة جائلين في كل مكان، كتلة سكانية ضخمة في مكان واحد ضئيل، تيقَّن أن المرور بسيارته أمر مستحيل، لذلك تركها وفضَّل أن يكمل طريقة على

قدميه. تخطى الزحام حتى وصل إلى حشد لرجال الشرطة بالقرب من عقار قديم مكون من طابقين، أشعل لفافة تبغ ووضعها بين شفتيه، ثم تقدم في اتجاه العقار، سلالم قليلة وأصبح أمام الشقة، بالطبع مكان كهذا لن يكون فيه «كاميرا» مراقبة واحدة لتصوير القاتل، إنه بارع، يختار ضحاياه بعناية شديدة، هكذا حدَّث نفسه.

أخرج مفكرته وكتب تلك الملاحظة، تخطى عتبة الباب ليجد العشرات من رجال البحث الجنائي في كل مكان، شقة ضيقة مكونة من حجرتين، وصالة متوسطة الحجم، ومطبخ ودورة مياة ضيقين للغاية، أنهى تفقُّده للمكان ثم دخل إلى الغرفة المنشودة، وجدها مختلفة تمامًا عن بقية الشقة؛ فهي تبدو مطلية حديثًا، مرتبة ومنظمة، وبها الكثير من الإضاءات المختلفة ألوانها حمراء وخضراء وغيرها. أزاح أحد رجال الشرطة من طريقه ليجد مشهدًا لم يكن يتصوره عقله رغم خبرته وعمله في العديد من القضايا لأناس قساة القلوب.

جثة عارية تمامًا لفتاة في العشرينات من عمرها، مارس عليها القاتل جميع ألوان العذاب من ضرب مبرح في أماكن متفرقة من جسدها، ثم قام باغتصابها وتقطيع ثدييها وذبحها، ذلك المشهد أثار فضوله وأحس أنه يبعد أشواطًا عن طريقة تفكير القاتل، كان متاكدًا للغاية مما شاهده، لكنه يريد أن يكون متيقنًا.

اقترب أكثر من الجثة وهو يكتب ما يراه من ملاحظات، لم يكن يلاحظ وجود الدكتور نادر الذي التفت إليه وهو يقول:

- هل لديك معلومات كافية عن الضحية، أم تريد سماع التصور المبدئي عن الجريمة؟

أشعل الرائد إسماعيل لفافة تبغ جديدة مجيبًا:

- أريد أن أعرف عن الضحية، وعندما تنتهي أريد معرفة التصور المبدئي ولكن بالتفصيل، نحن أمام شيء مختلف الآن.

وقف الدكتور بجانب الرائد إسماعيل وأخذ يتحدث وهو ينظر ويشير إلى الضحية:

- أخبرني الأمين أشرف أن الضحية تدعى (دينا هاشم أمين)، تبلغ سبعة وعشرين عامًا، درست وتخرجت في كلية الإعلام، ثم اتجهت إلى مواقع التواصل الاجتماعي وأصبحت -كما يسمونهم- «تيك توكر»، حصلت على الكثير من الأموال عن طريق الرقص وإنشاء محتويات مُخِلَّة على تلك المواقع، منذ عدة أيام علَّق أحد المتابعين لديها بأسلوب هجومي وقام بتهديدها، اتصل بها صديقها المقرب (ماهر) أكثر من مرة، وعندما لم تجِب توجه إلى منزلها، ولحسن الحظ كان يملك نسخة من المفتاح، دخل باحثًا عنها فوجدها على تلك الحالة، فأبلغ الشرطة التي بدورها وعن رؤيتها لنفس مواصفات الجريمة الأولى أبلغت مديرك المباشر ومديري، هذا هو ما أخبرني به الأمين أشرف... أما عن التصور المبدئي فهو جليٌّ أمام الجميع، القاتل قام باغتصابها أكثر من مرة وبطرق مختلفة وقاسية مستعينًا بأدوات حادة وأخرى لن تفيدنا في شيء، وعندما فرغ منها أخذ يكيل لها الضربات ركلًا في أماكن متفرقة وخاصة الصدر، فهناك أكثر من ضلع

مكسور، وقبل أن يذبحها قام بقطع ثدييها وذبحها بعدها، كل ذلك التصور لم يكن من نسج خيالي، فهو قد وثَّق معظم أفعاله بتلك الصور التي وضعها بجانب الجثة ولم يكن من الصعب التكهن بباقي ما حدث، في نهاية الأمر أظن أننا أمام مسخ آدمي شديد الذكاء.

أنهى كلماته ثم أعطى الرائد إسماعيل كيسًا شفافًا يحوي صورة للقاتل بجانب الضحية كُتب عليها بخط واضح:

«سيكون هناك المزيد من القتلي أسبوعيًا إذا لم يتولَّ التحقيق الضابط صالح طارق، أنا جاد للغاية فيما أقول».

أخرج الرائد هاتفه الجوال وبحث عن رقم العميد عادل، قام بالاتصال به:

- نعم، أنا في شقة المجني عليها، هناك أمر آخر، أعتقد أن من الأفضل أن تراه بنفسك وتأخذ قرارًا سريعًا به.

أغلق الهاتف ثم رفع صوته مناديًا على الأمين أشرف الذي حضر سريعًا فسأله:

- ماهر، ذلك الشاب الذي أبلغ عن الحادث، أين هو؟

أجابه مسرعًا:

- إنه في إحدى سيارات الشرطة أسفل العقار، هل أحضره لك؟

وضع إسماعيل يده على كتف أشرف:

- لا، أريده في مكتبي خلال ساعتين، أنا سأذهب في مأمورية، ثم

أعود للتحقيق معه وأريد الجيران أيضًا.

أنهى كلامه ثم نظر إلى الدكتور نادر:

- رجاءً، أريد منك التقرير النهائي في أسرع وقت.

تركهم وغادر مسرعًا، تعجب الدكتور من طريقة طلبه هذه المرة، ثم ردد الكلمة بتعجب:

«رجاءً!... يبدو أنه ليس على ما يرام».

***

أخذت تبكي بشدة وهي تمسك بصورة تجمعهما سويًا، كم كان وسيمًا جميل الطلة داخل تلك البدلة السوداء، علمت حينها أنه يحظى بشخصية جذابة، شعرت أنها تمتلك الحياة عندما تقدم للزواج منها، لم تكن سوى طبيبة أطفال ناجحة، وبعد عدة شهور أصبحت زوجة لضابط شرطة ناجح وطموح، لكنها لم تكن بقدر طموحاته، اتسعت الفجوة بعد سنة من الزواج، فقد استطاع أن ينجح في حل إحدى قضايا الرأي العام الشهيرة، واستطاع أن يطيح بأكبر تاجر للمخدرات في مصر (بهاء صبري)، تتذكر اسمه جيدًا؛ فقد كان حديث كل الصحف، ذاع صيته وتمت ترقيته لرائد قبل أقرانه من دفعته، تم نقله إلى المباحث الجنائية وتوالت نجاحاته سريعًا، وكلما نجح في حل قضية اتسعت الفجوة بينهما، جاهدت طويلًا للحاق به أو لفت انتباهه، تمكنت من الحفاظ على رباطة جأشها وأرجعت الأمور إلى انشغاله بأداء وظيفة وطنية مهمة وشائكة وبها الكثير من الضغط.

وضعت الصورة ثم أمسكت بملف معنون باسم أحد معامل التحاليل، فتحته ومسحت دموعها، قرأت ما بداخله، ثم أغلقته ووضعته داخل درج الكومود الخاص بها، تدثرت بالغطاء، ثم ألقت نظرة أخيرة على صورة أخرى معلقة تجمعهما سويًا، ابتسمت وأغلقت الإضاءة وذهبت في سبات عميق وهي تنطق باسمة: إسماعيل.

***

توقف صالح بسيارته أسفل العقار الذي يقطنه، حمل بدلته الميري وسلاحه الناري وهاتفه الجوال، ثم اتجه إلى مدخل العقار بعد أن سمع صوت القفل الآلي يصدر من السيارة، اتجه إلى المصعد، وقبل أن يضع إبهامه عليه أصدر هاتفه الجوال رنينًا، نظر إلى شاشة الهاتف فوجد اسم العميد عادل، شعر أن هناك أمرًا ما لن يحمد عقباه، تردد ثم أجاب:

- سيادة العميد، مساء الخير.

أتاه الصوت صارمًا وحادًا ومرتفعًا من الطرف الآخر:

- أريدك خلال دقائق في مكتبي.

أغلق الهاتف في وجهه، فظل واقفًا أمام باب المصعد، احمرَّ وجهه غضبًا، علم أنه مقبل على كارثة، أراد تأجيلها، لكنها أتت إلى بابه ولا مجال للتراجع، هناك من يريد إقحامه في صراع لا يدري فيه مَنْ الخصم، التفت بعد أن تمتم ببعض الكلمات تفريجًا عما بصدره، اتجه

إلى سيارته التي لم يبرد موتورها بعد، فتح الباب الخلفي وألقى بداخلها ما كان يحمله، ثم أغلق الباب، فتح الباب الأمامي ثم دلف إلى السيارة، ضرب بكف يده المقود، ثم حاول أن يهدئ من روعه، وضع المفتاح في مكانه، أدار الموتور من جديد وانطلق مسرعًا إلى قدر محتوم.

أراك تتبعني في محاولة يائسة منك لتوقُّع القادم، لا ترهق نفسك؛ فأنا أتحكم جيدًا بزمام الأمور، لكنني لن أمنعك من المحاولة، تلك السطور بمثابة لوحة شطرنج، وأنا أمثل الطرفين، أما أنت، فلست سوى بيدَق أحرِّكه كيفما أشاء وكما يحلو لي، صدقني، تلك هي الحقيقة المطلقة، فأنت داخل عالمي الآن.

(3)

أخذ نفسًا عميقًا وزفره في بطء محاولا تهدئة أعاصبه المتوترة، عدل من هندامه ثم طرق الباب وهو ينظر إلى اللافته المعلقة وعليها اسم العميد عادل، سمع صوته الجهور من الداخل يطلب منه الإسراع بالدخول، فتح صالح الباب ليجد الرائد إسماعيل جالسًا على أحد الكراسي، وعلى الطرف الآخر من المكتب رأى العميد يشير إليه أن يقترب ويجلس، بخطوات سريعة واسعة كان جالسًا مقابلًا لإسماعيل الذي أطال النظر إليه متفحصًا ولم يتفوه بكلمة.

بعد أن عرَّفهم العميد عادل على بعضهما البعض بدأ في الحديث بشكل يوحي أنه تحقيق وليس حوارًا:

- هل تتذكر ما قرأته في ملف القضية التي أعطيتك إياه؟

أومأ صالح بالإيجاب:

- نعم، أتذكر كل حرف.

أمسك بفنجان القهوة وأخذ رشفة سريعة وقال:

- القاتل ارتكب جريمة أخرى أبشع تلك المرة، وترك لك تلك الصورة.

مد يده بالصورة التي تجمع القاتل بقناعه الأسود بجانب جسد الفتاة العاري والمشوَّه، أمسك صالح بالصورة ونظر إليها وأطال النظر ثم تركها أعلى المكتب وقد أوحت ملامح وجهه بكل ما جال بخاطره.

- اقرا ما كُتب على ظهر الصورة.

أمسك صالح بالصورة من جديد وقرأ التهديد المكتوب، ابتلع ريقه ثم أعاد الصورة من جديد إلى سطح المكتب وقال:

- هل تطلب مني من جديد أن أنضم لتلك القضية بناء على رغبة القاتل؟

ارتفع صوت العميد عادل:

- لا، أنا لا أطلب، هذا أمر ولا خيار لك به، ستكون مرافقًا للرائد إسماعيل، تتعلم منه، حاول مساعدته، سيتسلم أحد ضباط الجهاز القضية التي كنت تعمل عليها، وستتحول إلى مكتب إسماعيل بشكل كامل، وتطلع على كل التحريات، وتشاركه كل التحقيقات حتى تتمكنوا سويًا من الإمساك بذلك المختل، لكنني أريد أن أسالك من جديد ولن أكرر سؤالي مرة أخرى، هل تعلم أي شيء عن هذا القاتل؟

رد سريعًا وهو يدور بنظره بين الاثنين:

- أخبرت سيادتك من قبل أنني لا أعلم شيئًا عن القاتل أو هؤلاء الضحايا، ولا أعلم حقًا ما الغرض وراء طلبه لي بالاسم.

لأول مرة تحدث الرائد إسماعيل:

- سيتضح قريبًا السبب وراء ذلك الطلب المتكرر، هذا ليس بالمهم الآن، الأفضل أن نتحرك سريعًا قبل أن يرتكب القاتل جريمة جديدة أكثر بشاعة مما سبق.. اسمح لي يا سيادة العميد، أريد أن أتحرك الآن برفقة صالح لإكمال التحقيقات والتحريات، أعتقد أننا نسابق الزمن

مع ذلك القاتل.

عاد العميد عادل بظهره إلى الخلف.

- أتفق معك، يمكنكما الذهاب، وأنا سأتكفل بإيصال خبر توليك القضية إلى وسائل الإعلام حتى يتنبه القاتل لذلك الأمر، لا نملك الآن سوى مجاراته حتى نكسب بعض الوقت، أريد أن أكون على دراية بكل خطوة تقومان بها، تقرير مفصل يومي، لا أريد أي خطأ؛ ستتحول الأمور إلى قضية رأي عام ونحن في غنى عن ذلك، مفهوم؟

- مفهوم يا سيادة العميد.

وقف الضابطان واتجها إلى باب المكتب، في المقدمة الرائد ويتبعه صالح وهو يفكر فيما هو مقبل عليه، لم يعد يملك الخيار، لقد أصبح مكلفًا الآن، ما شاهده داخل تلك الصورة لا يوحي بأي خير بتاتًا، يعلم في قرارة نفسه أن هناك رابطًا بينه وبين القاتل، لكنه كالأعمى الذي تُرك وحيدًا وسط الصحراء وقد حلَّ الليل، ظلمات فوق ظلمات.

***

وقف مترددًا أمام أحد الأبواب، شعر أن هناك من يراقبه، استدار وأمعن النظر ليرى كيانًا مفزعًا يستتر خلف أحد الأشجار، تمتم ببعض الكلمات والتفت من جديد، خطا خطوتين، وقبل أن يطرق الباب وضع الغطاء على وجهه ليخفي معالمه ولم يترك سوى العينين، طرق الباب ففتح رجل ضخم الجسد دامع العينين، نظر إليه متعجبًا ثم قال:

- هل أنت مُنطِق الموتى؟ أنت الذي حدثني في الهاتف منذ ساعة؟

أومأ خالد بالإيجاب من دون أن يتحدث، أشار له الرجل أن يدخل.

- أخبرني أولًا، كيف علمت بموت أمي؟

أغلق الباب خلفه ووقف مواجهًا لخالد الذي قال:

- وصلني خبر قتلها فكان عليّ أن أتصل وأشكرك أنك اقتنعت قبل أن تبلغ الشرطة.

اتسعت عينا الرجل:

- وصلك!! منْ الذي أوصل لك خبر موتها؟

نظر خالد إلى عين الرجل وقال:

- (ثابت) أليس كذلك، أنت الابن الأكبر لها، عليك أن تعلم أن هناك أسرارًا خفية لا يمكنك استيعابها حتى لو شرحتها لك، لكن يمكنني تبسيطها في كلمات قليلة، أنا مكلف باستنطاق من قتلوا ويرغبون في البوح للمرة الأخيرة باسم قاتلهم أو صفاته أو ما يدل عليه قبل رحيلهم.

أومأ الرجل ببلاهة ثم قال:

- أنت متأكد أن أمي قتلت ولم تمت ميتة طبيعية؟

أشار له أن يجلس فجلس:

- نعم متأكد، وسيثبت الطب الشرعي أنها قُتِلت.. أتريد أن تعرف هوية الفاعل الآن أم تنتظر ما ستسفر عنه التحقيقات؟ أنت تعلم أنها

فرصتك الأفضل.

صمت الرجل قليلًا وقبل أن يتحدث ظهر شاب آخر من رواق طويل ويبدو أنه سمع الحديث:

- وكيف نثق بك؟ نحن لا نعلم عنك شيئًا ولا نعرف شكلك، لمَ أنت خائفًا من أن نرى ملامح وجهك؟ أنا لا أثق بك.

وقف خالد وقال:

- إذن، لقد انتهى عملي هنا ويمكنني الرحيل الآن.

ارتفع صوت ثابت موبخًا أخاه الأصغر:

- اصمت يا (بلال)، انتظر يا شيخ، لن نخسر شيئًا، كم تريد من المال؟

جلس خالد وقال:

- أنا لست بشيخ، ولا أسعى إلى المال، كل ما أريده الآن هو كوب من الماء، وأريد أن أنجز ما أتيت من أجله؛ فهناك موتى آخرون يستدعونني، لكنني لن أفصح عن هويتي أو أكشف عن وجهي، إذا وافقتم على هذه الشروط أنا جاهز للبدء.

ارتفع صوت بلال مرة أخرى:

- لكننا لم نسمع من قبل عن مُنطقٍ للموتى، هل تريد مني أن أصدق أنك الأول من نوعك؟

- بالتاكيد كان هناك آخرون مثلي في كل مكان بالعالم قبل أن أفقد

أثرهم، لكنني نجوت بطريقة ما، وبالطبع ليس كل من قتل يمكنني استنطاقه، فهذا يحدث في حالات نادرة ولها مواصفات وعلامات خاصة تظهر على الميت، منها ما تحمله والدتكما في منتصف لسانها الآن، سترون أن لديها في منتصفه شقًّا ممتدًا إلى آخره، وهناك علامات أخرى لن يلاحظها سواي، تلك الصفات والعلامات لا يمكن لأي شخص عادي أن يراها أو يستوعبها، لكنها تظهر جلية أمامي وبوضوح وتختلف من ميت إلى آخر، فقد تتوافر في البعض علامة أو اثنتين، وقد تتوافر كل العلامات، هذا كل ما يمكنني إخبارك به... أرى أن نبدأ إذا أردتما ذلك، أم أرحل الآن؟

نظر الأخوان إلى بعضهما البعض في تعجب؛ فقد صدق في قوله عن الشق الموجود على لسانها، وقد شاهداه مرات عديده من قبل، أشارا إليه ثم وقفًا واتجها إلى الغرفة التي يرقد بها جسد أمهما، أضاءا الأنوار ورتَّبا المكان، ثم عادا إليه بكوب من الماء كما أمر، وأذنوا له بالدخول، تبعهما خالد وقال:

- إضاءة هادئة، تُفضَّل الشموع، واثنان ممن كانت تحبهم وتثق بهم وهي على قيد الحياة.

أجابه بلال:

- نحن ابناها وأقرب الناس إليها، سنمكث معك حتى تنتهي.

رفع خالد الغطاء عن فمه وتمتم على كوب الماء ثم تجرعه دفعة واحدة، أعطى أحدهما الكوب واتجه نحو جسد أمهما، جلس عند رأسها ووضع يده على جبينها وبدأ في التمتمة، اهتز الجسد وكأن

الحياة قد عادت إليه من جديد، فزع الابنان وظن ثابت أن أمه قد عادت إلى الحياة فاقترب، نظر إليه خالد وأشار إليه أن يبتعد، جاهد الجثمان وأخذ يعلو صوته ببعض الكلمات غير المفهومة حتى هدأ الجسد من جديد، أغمض عينه وحاول أن يهدأ ثم قال:

- إنها غاضبة بشدة، لقد قُتلت غدرًا، اصمتوا رجاءً ولنستمع لما ستقوله أمكما.

***

توقفت السيارة أمام باب المشرحة، اقترب أحد أفراد الأمن مستعلمًا عمن بداخلها، أظهر له الرائد إسماعيل الهوية الخاصة به فسمح له بالعبور، توقف بالسيارة على جانب السور الداخلي من المبنى القديم المظلم، ثم هبط منها برفقة صالح.

- ما الذي نفعله هنا؟

نظر إسماعيل إليه، ثم ابتسم وهو يشعل لفافة تبغ ويضعها بين شفتيه:

- يبدو أنك لا تدخن، لكنني أدخن بشراهة، ذلك يزيد تركيزي أثناء العمل، تلك نصحية مجانية لو أردت أن تعمل بها.

أخذ صالح يجول بنظره إلى ذلك المبنى المظلم الذي تفوح منه رائحة الموت.

- لم تُجِبني على السؤال.

أخذ نفسًا عميقًا ملأ به صدره وزفر الدخان إلى أعلى وهو يرفع

ياقة البالطو أسود اللون الذي يرتديه فور شعوره ببرودة الطقس مجيبًا:

- نحن نعمل، عملنا يتطلب منا الكثير من الجهد، التفكير، قلة النوم، زيارة أماكن محببة مثل تلك القابعة أمامنا وأخيرًا التدخين للحفاظ على سلامة عقولنا، أواثق أنك لا تريد واحدة؟

أنهى كلماته وهو يشير إلى لفافة التبغ بيده، لم يتفوه صالح بكلمة وظل صامتًا، انتظره بصعوبة حتى فرغ إسماعيل من التدخين وألقى بالسيجارة على الأرض ودهسها أسفل حذائه، تحرك في اتجاه باب المشرحة وتبعه بنفاد صبر.

فور دخولهما استقبلهما أحد العمال المساعدين للدكتور نادر وأوصلهما إلى مكتب الطبيب وأعد لهما فنجانين من القهوة، نظر صالح إلى ساعة يده فوجدها تخطت الثالثة فجرًا، ابتسم له إسماعيل قائلًا:

- لست متزوجًا مثلي، إذن لا داعي للقلق.

ابتسم صالح رغمًا عنه وهدأت نفسه المستنفرة طيلة الوقت وشعر أنه بدأ في الاقتناع بتواجده في تلك القضية وعليه التعايش مع الأمور، قام إسماعيل من مجلسه وأخذ يتجول داخل المكتب وهو ينظر إلى محتوياته، ثم أخرج المفكرة ودوّن بها ملاحظة وعاد للجلوس من جديد، نظر له صالح متسائلًا:

- أيمكنني رؤيتها؟

تردد إسماعيل قليلًا ثم مد يده بالمفكرة إليه قائلًا:

- اعتدت الأمر، تساعدني الكتابة على التفكير بشكل أوضح وأكثر تركيزًا، ستتفاجأ أن تلك الملاحظات ستكون مفتاحًا لحل تلك القضية، صدقني، دائمًا كنت أجد حل القضايا في أحد جوانب تلك المفكرة.

دقائق من القراءة كانت كفيلة بتيقن صالح أنه يجلس أمام ضابط يفوقه في الكثير من الصفات سواء الذهنية أو العملية، تلك التفاصيل المكتوبة بدقة داخل المفكرة تدل على قوة الملاحظة وسرعة البديهة وإمكانيات ذهنية هائلة، قدرة على الاستنتاج وتقمص طريقة تفكير المجرمين، خبرات متراكمة جعلت منه تلميذًا أمام مدرس أول لمادة البحث الجنائي، أعاد المفكرة إلى صاحبها ومعه فتح الباب ودخل من خلفه الدكتور نادر ومعه المزيد من الألغاز، سلَّم على الضابطين في عجالة وجلس خلف مكتبه وبَدأ في كتابة تقريره قبل أن يفقد التفاصيل، انتظرا حتى انتهى ثم قال:

- عذرًا، كان عليَّ أن أكتب التقرير بذهن حاضر قبل أن أخوض في أي حديث، التفاصيل الصغيرة غير الملاحظة مهمة بقدر الكبيرة الواضحة للجميع.

نظر إلى صالح ثم إلى إسماعيل وقال:

- ضابط آخر يتولى التحقيق معك في قضية واحدة! تلك سابقة أريد أن أعرف سببها و...

قاطعة إسماعيل بجديته المعروفة:

- العمل، العمل أولًا، ثم الثرثرة، أخبرني بما لديك وما توصلت إليه.

حرك الدكتور رأسه يمينًا ويسارًا في حنق ثم ارتدى نظارته الطبية وقال وهو يعطي التقرير إليه:

- لم نكن على صواب.

تعجب إسماعيل من قول الدكتور الذي أكمل كلماته:

- هما اثنان وليس واحدًا، من يرتكب الجرائم، اثنان.

التفت إسماعيل بكل جسده تجاهه معلقًا على كلامه:

- اثنان!!

مسح نادر على وجه مستكملًا:

- نعم اثنان، هذا ما اعتقده الآن بناء على المستجدات، فور وصول الجثة إلى المشرحة، تم أخذ عينة «سائل منوي» من عضوها التناسلي ومن فتحة الشرج وتبين أن هناك حمضين نووين لرجُلين مختلفين تناوبا على اغتصابها بشراسة وقسوة، وأرجِّح أن مدة الاغتصاب طالت لساعاتين على أقل تقدير ولعدة مرات متتالية، الأضرار كبيرة للغاية، هناك تهتكات وجروح بالغة.

تحدث صالح:

- لكن الصور لا تظهر سوى شخص واحد.

أوما الدكتور نادر بالموافقة:

- صحيح كما في الجريمة الأولى، لكن هذا ما أثبتته التحاليل، رجلان كانا مع تلك الفتاة.

أشعل الرائد إسماعيل لفافة تبغ من جديد وصمت للحظات ثم قال:

- رجلان تناوبا على اغتصاب فتاة لساعتين كما تقول وتركا حمضهما النووي على جسد الفتاة لكنهما لم يتركا بصمات في أي مكان داخل مسرح الجريمة! هناك شيء خاطئ بالتاكيد.

- القاتل ليس بهذا الغباء.

قالها صالح فالتفت إليه الاثنان فأكمل:

- لن يخطئ ذلك الخطأ الذي يعرضه للخطر، إنه يتلاعب بنا.

أخذ إسماعيل نفسًا ملأ به صدره وقال:

- أوَ يتلاعبان بنا؟ دكتور نادر، أريد أن أسالك سؤالًا لن يجيبه إلا ذو خبرة كبيرة في مجال عمله وأعتقد أنك من أكفا الأطباء الشرعيين وأكثرهم خبرة.

ابتسم مجاملة لأنه لم يعتد منه ذلك الأسلوب في الكلام معه:

- هذه، مجاملة كبيرة أقدرها، تفضَّل.

أخرج إسماعيل مفكرته ونظر إليه بتمعن:

- هل تعتقد أن شخصًا واحدًا فقط قادرًا على فعل ضرر مماثل من وجهة نظرك؟

خلع نادر نظارته وأخذ عدة ثوانٍ من التفكير ثم قال:

- نعم أعتقد، إذا كان ذلك الرجل يتمتع بالقوة الكافية لقدرات رجلين مجتمعين سويًا، وهنا أقصد القدرات الجسمانية والجنسية، ما حدث للفتاة يفوق فعل رجل واحد يتمتع بصحة جيدة.

ظهرت معالم التردد على وجه صالح قبل أن يتحدث:

- إنه يتلاعب بنا، يريدنا أن نظن أن هناك أكثر من فاعل لتلك الجرائم، يريد تشتيت أفكارنا، أشعر بذلك.

دفن إسماعيل لفافة التبغ داخل مثواها الأخير وهو يقول:

- ربما، لا تتعجل، أمامنا الكثير من العمل.

أنهى كلماته ووقف، اتجه إلى باب المكتب دون أن يلقي التحية على نادر وفتح الباب وخرج، بينما سلّم صالح على الطبيب وهو متعجب من فعل شريكه في القضية وتبعه إلى الخارج للحاق به، أثناء خروجه من باب المكتب لمح ذلك المساعد يقف مستترًا على بعد خطوات، ويبدو أنه كان يسترق السمع، بحث داخل سترته عن ورقة وقلم فلم يجد فدوّن تلك الملاحظة على هاتفه الجوال وأكمل طريقه في اتجاه باب المشرحة.. يبدو أن صالح اكتسب مهارة جديدة وهي تدوين الملاحظات.

***

أخذ يمسح نزيف دمائه الذي لا يتوقف وهو ينظر إلى انعكاس صورة وجهه المجهد في مرآة الحمام، شعر بوهن كبير وأنه غير قادر على الوقوف لفترة طويلة، تلك المسنة أرهقته للغاية عندما أراد أن

يستنطقها، إنها غاضبة بشكل لا يصدق ولها كل الحق، الخطورة فيما يفعله تكمن في لحظات تجمع بين عالمي الأحياء والموتى معًا، هناك الملايين من الأرواح العالقة تريد البوح والحديث، تمثل تلك الطريقة بوابة مضيئة لعالم الموتى، تجذبهم بشدة نحوها كمغناطيس عملاق، لذلك عليه أن ينتهي سريعًا قبل أن تحدث كارثة.

عندما كان طفلًا ذا ثلاثة عشر عامًا سأل شيخه الذي رأى فيه القدرة والإمكانيات ليصبح (مُنطقًا للموتى):

- ما الذي يمكن أن يحدث إذا ترك ذلك الباب مفتوحًا بين العالمين؟

حينها صمت الشيخ لدقيقة وقد تعرق جبينه وكأنه يشاهد حوادث مفزعة تحدث أمامه ثم قال:

- أهوال يا خالد، أهوال لن يصمد أمامها الأحياء من كل العوالم.

نظر الطفل إلى شيخه متسائلًا:

- وهل هناك أكثر من عالمين؟ عالم الجان وعالم الإنسان؟

نظر له بتمعن ذلك الشيخ وقال وهو يمسك به ويصحبه إلى باب أشبه بالكهف:

- لا يمكنني أن أجيبك عن تلك الأسئلة الآن فأنت لست مؤهلًا، عليك أن تجتاز أولًا عدة اختبارات وبعد أن تجتازها وتكتسب ثقتي، سأكلفك بمهمة شاقة وصعبة وستكون بمثابة اختبار نهائي، بعده سأجيبك عن كل ما تريد معرفته وسأعلنك مُنطقًا للموتى.

وقف الشيخ والطفل أمام حائط عملاق بعد أن عبرا باب الكهف،

حائط مرسوم عليه الكثير من الأشكال الغريبة منها المفزع ومنها ما يثير الفضول، كلمات لا معنى لها بدأت تتكون وتتشكل أمام الطفل الذي أخذ ينطق ما يقرأه وسط تعجب من الشيخ.

قطع شروده صوت الطرق على باب الحمام من ثابت:

- يا شيخ، هل أنت على ما يرام؟ هل توقف نزيف أنفك؟

غسل خالد وجهه وتأكد أن النزيف توقف تمامًا وأنه استعاد جزءًا بسيطًا من عافيته، وضع الغطاء الملطخ بالدماء على وجه ثم فتح الباب:

- أنا على ما يرام، أخبرني، هل عاد أخوك.

تحركا سويًا حتى وصلا إلى الصالة الرئيسية وجلسا.

- أنا قلق للغاية يا شيخ، لو كانت زوجته الفاعلة سوف يقوم بقتلها وقد يُعدم نتيجة ذلك.

جاء الرد سريعًا:

- صدقني، أنا لست بشيخ، أنا فقط أوتيت علمًا ضئيلًا لم أختره يومًا، لكنني وُكِّلت به، عليك أن تُحكم السيطرة على انفعالات أخيك عندما يعود، كل ما عليكما فعله هو التحفظ عليها لحين قدوم الشرطة، هل اتصلت بهم؟

أومأ ثابت بالإيجاب:

- نعم، وأخبرتهم أنني أشك في أن موت أمي لم يكن طبيعيًا.

وقف خالد ومد يده بالسلام إليه:

- إذن عليّ أن أرحل، رجاءً لا تخبروا أحدًا بما حدث، هناك أمر أخير، إذا أنكرت زوجة أخيك أنها سممت الطعام لأمك بعد أن اكتشفت سرقتها بعضًا من ذهبها ستجدان قطعة أخيرة موضوعة في حقيبة سفر أسفل فراشهما، أما بقية الذهب فقد باعته وأرسلت المال إلى أخيها كي يشتري أرضًا باسمها.

تغيرت ملامح ثابت:

- شيطانة تجسدت في هيئة بشر... لكن كيف علمت بكل تلك التفاصيل، أمي لم تنطق سوى باسمها فقط دون أن تذكر كل تلك التفاصيل؟

تحرك خالد تجاه الباب ثم التفت:

- ما زالت تحدثني يا ثابت، وستظل هكذا لبقية حياتها حتى تنال راحتها وتثأر من قاتلها، حينها فقط ستكف عن التحدث معي، أخبرتك أن هناك أسرارًا خفية لا يمكنك تخيلها حتى.

فتح خالد الباب وخرج وهو يشعر أنه يعاني دوارًا شديدًا، اتجه إلى سيارته، أدار محركها وأزاح الغطاء عن وجهه، ما زال هناك نزيف بسيط تمكن من إيقافه سريعًا، تحرك بالسيارة مبتعدًا عن المنزل، جاهد نفسه طيلة الطريق حتى وصل إلى منزله المنعزل.

ترك السيارة وهرول إلى الداخل، أحضر كيسًا كبيرًا من الملح وأغلق الدوائر وهو يسمع صوت كيان مفزع قادم بسرعة كبيرة،

وقبل لحظات من وصول ذلك الكيان أُغلقت الدائرة وتفاجأ خالد أنه واقف وجهًا لوجه أمام كيان مفزع لا يفصل بينهما سوى عدة سنتيمترات متمثلة بخط رفيع مكوَّن من الملح ومسحوق آخر، عاد خالد بظهره إلى الخلف يكاد قلبه ينخلع من مكانه، دخل إلى منزله وأحكم إغلاق الدوائر ثم وقع أرضًا مغشيًا عليه وهو يستمع إلى صرخات ذلك الكيان في الخارج.

***

سمعت صوت الباب يُفتح فانتفضت من الفراش وارتدت روب ثقيل ثم اتجهت إلى الصالة لتجد إسماعيل يجلس على كرسي قريب من الباب، يخلع حذاءه ويضع مفاتحيه جانبًا، ساعدته في خلع سترته وحملت عنه سلاحه الناري بعد أن قبّلته ومسحت على رأسه بحنان، تعلم أنه منهك الجسد والعقل، خاوي البطن، سندته حتى وصل إلى غرفة النوم وضعت السلاح جانبًا وعلقت السترة وهي تقول:

- دقائق وسيكون العشاء جاهزًا، أعلم جيدًا أنك نسيت أن تأكل طيلة اليوم بينما شربت العشرات من فناجين القهوة والمئات من السجائر.

لم يجِبها سوى بابتسامة موافقة على كل كلماتها حتى وإن كانت مبالغة في عدد السجائر، وقف مترنحًا واتجه إلى دورة المياه، خلع ملابسه وجعل المياه الساخنة كما يفضلها تندفع إلى جسده المنهك لعلها تذيقه بعضًا من الراحة.

دقائق لم يُحصِها وهو ما زال واقفًا مستمتعًا بتساقط المياه أعلى رأسه الممتلئ بالعديد من السيناريوهات المختلفة لحل القضية وطريقة تحرك وتفكير القاتل أو القاتلين، جاهد في إيقاف تدفق أفكاره وتدفق المياه ونجح في واحدة فقط، أن يوقف المياه، ارتدى ملابسه كإنسان آليّ، واتجه إلى الفراش مسلوب الإرادة بسلطان النوم ثم تدثر بالغطاء وسقط في هوة سحيقة لا قرار لها.

دخلت جميلة إلى الغرفة وهي تحمل صينية كبيرة من الطعام موضوع عليها أصناف مختلفة منه ترسم ابتسامة تزيد من جمالها وهي تقول:

- هل تأخرت عليك يا حبيبي؟

صمتت كما اعتادت عندما وجدته أسفل الغطاء وقد علا صوت غطيطه، اختفت نصف الابتسامة، وضعت الطعام جانبًا ثم خفضت إضاءة الغرفة، اتجهت إليه وقبّلت رأسه ثم أقحمت رأسها داخل صدره واحتضنته بشدة في محاولة منها لخطف لحظات من حياته المزدحمة، شعور تستحقه وتحتاجه ولا تكتفي منه أبدًا، لكنها لا تنال منه سوى القليل، ستتعايش به لفترات طويلة، رفعت وجهها إلى وجهه، تحدثت إلى نفسها: «كم هو جميل ومرهِق أن تعشق شخصًا بهذا القدر من الطموح والأهمية! شخص هو كل الحياة، بينما أنت تتزيل حياته» تنفست رائحته وتشبثت به كطفلة صغيرة واستمعت إلى دقات قلبه، ثم أغمضت عينيها وتمنت أن تفيق على تلك الحالة، لكنها تعلم جيدًا أنها في الصباح وقبل أن تستيقظ ستكون وحيدة.

***

نظر من أعلى إلى المارة في الشارع وقد تضاءلت أحجامهم من ذلك الارتفاع الشاهق، شعر في قرارة نفسه أنهم جميعًا ولأسباب مختلفة يستحقون القتل أو الدهس نظرًا لحجمهم الحالي، أو لشعوره المُلِح بكره الجميع، هؤلاء مذنبون من دون شك؛ منهم من كذب ودمر قلب أحدهم وجعله يعيش تعيسًا لبقية حياته، سارق جعل من سارقه يحترق بنار الحاجة وفقد ما يحب، خائن يستحق أن يُفسخ لحم جسده عن عظامه جراء ما فعله بحبيب وضع كامل ثقته به فأصيب بجرح عميق بسبب الخذلان، قاتل يحمل رخصة تخوِّل له أن ينهي حياة أحدهم بكل هدوء وأريحية، وهذا هو أشد من يكره ويريد تدميره.

عاد إلى الداخل بعد أن بصق عليهم وتمنى أن تسقط فوق رأس من يستحقها، تأججت النيران، فوقف أمام الحائط الممتلئ بصور ضحاياه، شعر برغبة مُلِحة للقتل الذي يستخدمه كمسكِّن لآلامه، كلما اشتد عليه الألم قتل تنفيسًا عن روحه المعذَّبة حتى يصل إلى مبتغاه، إلى الدواء المناسب، أن ينتقم من الشخص الذي جعله يعيش جحيمًا في دنياه.

أعد لنفسه مشروبًا دافئًا ثم جلس وأمسك بهاتفه الجوال، فتح أحد مواقع التواصل الاجتماعي فوجد أخبارًا متداولة وممنهجة عن قضايا قتل قام أحد الإعلاميين بتسميتها «قضية الساعة» وتبعه الجميع من أقرنائه، ومع قراءة الخبر كاملًا أصدر ضحكات هستيرية مرتفعة ثم ترك الهاتف واتجه إلى مشغل الموسيقى وأخذ يتراقص

على نغمات كلاسيكية، رقصات تدل على خلل عقلي ونفسي... على شاشة الهاتف ظهر نص الخبر:

«تولِّي الملازم أول صالح طارق التحقيق في القضية برفقة الرائد إسماعيل الريس».

اتجه إلى تلك المرآة المحطمة ونظر إلى انعكاس صورته غير المتناسقة بفخر، أحس أنه يحقق انتصارًا حتى وإن كان انتصارًا زائفًا، تجمد في مكانه وظل يمعن النظر حتى انتهت المقطوعة الموسيقية بينما ظل هو واقفًا أمام المرآة ساكنًا من دون حراك، فقط ينظر إلى إنعكاس عينيه، إلى داخل روحه، يستمتع برؤية ألسنة اللهب تتراقص داخل مقلتيه.

***

«نظراتها تثير الريبة»، هكذا حدَّث صالح نفسه وهو ينظر إلى (سارة) الصديقة المقربة للضحية الثانية دينا، شعر أنها تخفي أكثر مما تبدي، فكرر سؤاله للمرة الثانية:

- متى آخر مرة كنتِ في منزل دينا؟

لم تتمكن من النظر إلى عينيه مباشرة وهذا دليل قاطع أنها ستكذب.

- منذ أسبوع تقريبًا، لقد أخبرتك من قبل.

- حسنًا، سنكتشف بأنفسنا متى كانت آخر مرة، أخبريني عن طبيعة عملكما، كيف تحصلان على كل تلك الأموال من مجرد ظهوركما في

فديوهات خليعة ومُخِلة في بعض الأوقات على تلك التطبيقات.

شعرت أنها ستقع في مأزق إذا أفصحت عن حقيقة الأمر ففضلت المرواغة.

- يكافئنا التطبيق على عدد المشاهدات التي نحصل عليها ويحوِّلها إلى أموال ترسل إلينا كل شهر على الحساب البنكي.

ارتفع صوت صالح وطرق بيده على المكتب ففزعت سارة.

- حسابك البنكي بكل التحويلات منذ عامين أمامي الآن، ذلك القدر الضئيل من المال لا يكفي لشراء تلك السيارة الحديثة، ولا ذلك المنزل داخل أفخر الكومبوندات، وأعتقد أنك تعلمين أن دينا كانت تمتلك ثلاثة منازل وسيارتين، لكنها فضلت أن تختبئ في منزلها القديم.

وضع أمامها ورقة تمثل الحساب البنكي الخاص بها وصورتين؛ إحداهما لسيارتها والأخرى لمنزلها الفاخر، حاولت التماسك فارتفع صوته أكثر:

- لا مزيد من التلاعب، كيف تحصلان على هذه الأموال، وممَ كانت تختبئ دينا قبل أن تُقتل؟

- نحن نقوم بتجنيد الفتيات للظهور على تلك التطبيقات، وهناك أنشطة أخرى غير قانوينة كالأفلام الإباحية والدعارة نقوم بها مقابل مبالغ مالية كبيرة، لكنني حقًا لا أعلم بهوية من قتل دينا... صدقنيى هذا كل ما أعلمه.

نظر لها صالح بتقزز ثم قال:

- يمكنك أن ترحلي الآن، سأحرص أن تتم ملاحقتك فور أن أنتهي من هذه القضية.

وقفت وهرولت إلى الباب وخرجت فأُغلق خلفها وهي ترتعش، اتجه صالح إلى الشباك لينال قسطًا من الهواء ينعش به صدره بعد ساعات قضاها في التحقيق، ثم عاد ليجلس من جديد فور فتح الباب ودخول (ماهر) أحد أصدقاء دينا وهو من أبلغ عن الحادث، أشار صالح له أن يجلس، وقبل أن يسأله تحدَّث بتأثُر:

- منذ أسبوعين تلقت دينا تهديدًا من أحد الأشخاص المتابعين لها على أحد مواقع التواصل الاجتماعي قال لها نصًا إنه سيذبحها بعد أن يغتصبها، وهذا ما حدث معها، عندما تكررت تهديدات ذلك الرجل لها أبلغتني أنها ستعود إلى شقتها القديمة لأنها تشعر أنه صادق في كلامه، وأنها ستختفي عن كل الأصدقاء والأماكن العامة، كنت أحضر لها طلباتها كل عدة أيام، اقضى معها عدة ساعات ثم أرحل، في ذلك اليوم حاولت الاتصال بها عدة مرات لم تجِب كما أن موعد الفيديو اليومي لم تظهر به، شعرت أن هناك شيئًا خاطئًا، وأنها تعرضت لمكروه، وعندما ذهبت كان ظني في محله.

كان يتحدث بتاثر وهو دامع العينين ويبدو أنه كانت تجمعه علاقة قوية بدينا، بدا واضحًا عليه الحزن والغضب، فأخرج علبة سجائر قائلًا:

- هل يمكنني التدخين؟ رجاءً أنا بحاجة مُلِحة لواحدة.

أشار له صالح بالموافقة، وظل يراقبه، وعندما أشعلها باغته:

- أنا متعجب للغاية؛ إذا كنت تحبها بذلك القدر الكبير لماذا تركتها تمارس وتفعل ما كانت تفعله، تسجيل أفلام إباحية، تجنيد الفتيات، الرقص بخلاعة على مواقع التواصل الاجتماعي، الدعارة؟

ازدادت الدموع فى عين ماهر لكنه لم يجِب..

- فهمت، أنت الوسيط في ذلك الأمر، كانت إحدى ضحاياك، ثم مع الوقت شعرت أنك متعلق بها، لكنك لا تنسى أنها عاهرة من بين العاهرات التي قمت بصناعتهن بيدك، لذلك تشعر بالذنب لما حدث لها، لكنني أتساءل: أنت الوحيد الذي كان يعلم بعنوانها القديم، من غيرك كان على دراية به؟

- أنا لم أقتل دينا، لم أقتلها.

ابتسم صالح وهو يقف ويتحرك ليجلس مواجهًا للشاب.

- أعلم، لكنك تسببت في ذلك يا أحمق، لم يكن على القاتل سوى مراقبتك لعدة مرات حتى يعلم مكانها، أريد أن أرى تلك التهديات.

أخرج ماهر هاتفه الجوال وأعطاه إلى صالح الذي طلب من الأمين أشرف أن يذهب بذلك الهاتف إلى مباحث «الإنترنت» ويعثر على كل المعلومات الكافية عن صاحب ذلك الحساب.

خرج الأمين مسرعًا، بينما عاد صالح للجلوس في مكانه ثم قال:

- اترك رقمًا يمكننا التواصل عليه وسأعيد لك هاتفك بعد أن نحصل على المعلومات الكافية، أتمنى أن تتراجع عن أفعالك وأن تحاول

تصحيح الأمور طالما تستطيع فعل ذلك.

وقف ماهر وبدا عليه الخوف والغضب والحزن مجتمعين، خرج من الباب وهو يجرجر آلامه، أغلق الباب خلفه وفتحه أحد العساكر.

- هل تريد مني أن أحضر لك القهوة الآن؟

ابتسمَ صالح له مجيبًا:

- نعم، أريد قهوتي.. انتظر، وعلبة سجائر.

***

أفاق خالد ليجد نفسه ملقًى أرضًا على صدره وهناك بقعة صغيرة من الدماء المتجلطة أسفل أنفه الضخم، اعتدل ببطء ومسح على أنفه فوجد دماء قد التصقت بأنفه وشفتيه الغليظتين، حرك رأسه يمينًا ويسارًا محدثًا صوت فرقعة بين عظامه شعر بعدها بتحسن، اتجه إلى الحمام البدائي، خلع ملابسه وأمسك بخرطوم متصل بصنبور ماء وأخذ يصب الماء البارد على جسده، برودة الطقس كانت تجلده مرة وبرودة المياة كانت تنهال عليه بالجلْد مرات ومرات حتى اعتاد الأمر، خرج من الحمام وارتدى ثيابًا نظيفة.

أعد لنفسه القليل من الطعام وأخذ يفكر فيما شاهده في الليلة السابقة، لم يتعرض طيلة حياته لكيان مماثل، أيكون هذا من نسج خياله المجهد بعد ليلة قاسية مر بها، حالة الإعياء التي كان عليها من شأنها أن تجعل الرؤية ضبابية، وتتيح المجال لعقله الباطن للتلاعب به وتزييف الصور، لكنه كان يشعر أنه قاب قوسين أو أدنى من

الموت، من أتى ليلة أمس لم يكن لأذيته وحثه على عدم التدخل بين العوالم، بل جاء ليقصيه ويطيح برأسه.

حذره شيخه من قبل أنه لن يكون متواجدًا لحمايته، حثَّه أن يكف عن التزود بالعلوم القديمة، وأن يبتعد عن تلك الكتب التي يبحث عنها وبالأخص ذلك الكتاب الذي يسمع اسمه ويتردد في أذنه طيلة الوقت «السجل الأحمر».. تذكر حينها كيف حصل عليه بشكل غريب لم يفسره حتى الآن، فعندما أفاق في ليلة كان مُتعبًا فيها على صوت أحدهم يعبث داخل منزله بصوت منخفض، اعتدل واتجه إلى مصدر الصوت بحذر وخوف، أخذت الأفكار تعصف برأسه متسائلًا كيف استطاع أحد الشياطين اختراق دوائره الملحية محكمة الغلق، تتبَّع الصوت حتى وصل إلى إحدى الغرف، اقتحمها، لكنه لم يجد أحدًا، لم يجد سوى مرآة وذلك الكتاب ملفوف بقطعة قماش.

أنهى طعامه لكنه لم ينتهِ من التفكير، ظلت تراوده ذكرياته خاصة يوم ملاقاته بشيخه، وقتها كان في سن الثانية عشرة، كان طفلًا غريب الأطوار، يحلم بأماكن وأشخاص لم يقابلهم من قبل، يرى علامات لا يعلم معناها، يتنبأ بأحداث لا يمكن توقعها، فضولي للغاية، ولم يتكلم كثيرًا لكن عندما تسمعه لا تظن أنه طفل، يتمتع بشجاعة لم يشهدها أحد في نفس عمره.. حينها كان يسمع صوتًا دائمًا ويحلم بوجوده داخل البئر الذي عُرف عنه أنه مسكون من عالم الجن، فقرر أن يذهب وراء ذلك الصوت ليتأكد مما بداخله. وصل إليه وهو يتفحص ما بداخله ففوجئ بيد تجذبه إلى فوهة البئر، سقط وهو يصرخ، وجد جسده مستقرًا على الأرض ولم يصبه مكروه رغم أن

المسافة كبيرة، لم يكن بذلك الظلام الذي وصف به، لم يكن هناك ما يخيف كما أخبره العجائز، اعتدل ونظر إلى أعلى، وحينها سمع صوتًا كان قادمًا من خلفه:

- كيف ستعود إلى أعلى؟

دبَّ الرعب في قلبه واستدار وهو يرتعش مغمض العينين، خُيل له أنه أمام شيطان مريد، ولكنه عندما قرر المواجهة وفتح عينه لم يجد سوى شيخ مُسِن يرتدي جلبابًا أبيض يجلس أرضًا متربعًا وأمامه عدد كبير من الكتب، أشار لخالد أن يقترب ويجلس ففعل، فسأله الشيخ:

- هل تحب القراءة يا خالد؟

أومأ الطفل مجيبًا:

- نعم، كثيرًا، لكن لحظة، كيف عرفت اسمي؟ كيف هبطت إلى هنا؟ ألا تخاف؟ إنه مسكن الجن ولا ينبغي أن نظل هنا.

- وهل تخاف الجن؟

- لا، لكنني لم أرَ واحدًا من قبل، لحظة، أنا أعرفك، أقصد أنا رأيتك من قبل، لكنني لا أتذكر متى.

- في أحلامك، في يقظتك، كنت أراقبك في كل الأوقات؛ فأنت مميز في عالمك وفي عالمي أيضًا، كنت أنتظرك منذ زمن بعيد.

- تنتظرني وتراقبني؟

- نعم، أنت تمتلك ما نبحث عنه.

- وما الذي أمتلكه وتريده أنت بشدة؟

- أنت فضولي، لكن أكثر بكثير مما تظن أو ما ظننته أنا.

- أريد أن أعرف حقيقة ما يحدث معي، هل يمكنك إخباري؟

- نعم يمكنني، وسأفعل، لكن في الوقت المناسب.

- متى، رجاءً أخبرني.

اتسعت بسمة الشيخ، ثم مد يده وأمسك بكتاب وهو يقول:

- هل بإمكانك أن تصون العهد؟

ابتسم الطفل وقال:

- وما المقابل؟ هل يمكنني أن أكون مميزًا؟ سأصون العهد إذا أخبرتني حقيقة الأمر.

- يعجبنى ذكاؤك، أنت مميز بالفعل، وهناك أسرار كثيرة سأطلعك عليها إذا وافقت، أخبرني الآن: هل ستصون العهد؟

- نعم.

اتسعت بسمة الرجل فبانت أسنانه ناصعة البياض وأعطى له الكتاب:

- حسنًا، سأعطيك كتابًا وعهدًا وأعيدك إلى أعلى، وعندما تنتهي منه اقفز في البئر من جديد، ولكن تلك المرة بإرادتك، وقتها سأزيدك

علمًا، لكن لا تخبر أحدًا، أحذرك، إن فعلت سأختفي وإلى الأبد، وستختفي معي كل إجاباتك، سيعقد لسانك وتفقد قدراتك.

- لا تقلق يا شيخي، لن أخبر أحدًا؛ فانا أشعر أنني لا أنتمي إلى عالمي.

أفاق خالد من شروده فيما مضى على صوت فوران القهوة، اعتدل ولحق ما تبقى منها، شرب القهوة واتجه إلى ذلك الكتاب الذي أخرجه من صندوق غريب الشكل مغطى بالملح من الداخل ومن الخارج، أخرجه وظل يقلِّب بين صفحاته حتى وصل إلى عنوان «التعقُّب»، شعر أن هناك هواء باردًا يضرب المكان، هرول وتأكد أن دوائر الملح مغلقة، عاد إلى الكتاب وبدأ في القراءة، ظل ساعة كاملة يحاول استيعاب ما قرأه في ذلك الفصل الخطير، حدَّث نفسه بصوت مرتفع:

«لو تمكنت من ذلك لأوقفت نهر الدماء الجاري».

***

الدخان ملأ غرفة التحقيقات بالكامل وجعل من الرؤية مهمة صعبة، وبين كل هذه الأدخنة أخذ صالح يسعل بشدة، اتجه مسرعًا إلى الشباك وأطلق سراح الضباب كي يغادر المكان، لم ينته من السعال بعد وكأنه يعاقبه، أمسك بزجاجة مياه وأخذ يرتشف منها حتى هدأ، نظر إلى هاتفه عندما أصدر صوتًا، أمسك به فوجد رقم الرائد إسماعيل.

- أخبرني ما نتيجة التحقيقات؟ هل توصلت لشيء؟

جلس صالح وهو يجيب عليه:

- نعم، هناك مشتبه به، لكنني أحتاج إلى اسمه أو عنوانه، بمعنى أحتاج معلومات عنه.

جاء صوت إسماعيل ساخرًا:

- إذن لم تتوصل إلى شيء.

عاد صالح بظهره إلى الخلف.

- أنا في انتظار مباحث الإنترنت لتزويدي بهوية من أرسل التهديدات إلى دينا، وما سيثير اهتمامك حقًا أن من أرسل التهديدات هو المرشح الأول لأن يكون القاتل لأن ما حدث هو مطابق لما قال.

صمت إسماعيل قليلًا.

- جيد، هل هناك أي أمور هامة أخرى؟

ابتسم صالح قائلًا:

- نعم، هناك أمر هام، لقد أصبحت مدخنًا مثلك الآن.

جاء صوت الضحكات مرتفعًا:

- أعتقد أنك أبليت بلاء حسنًا بسبب ذلك، أبلغني بالمستجدات، أراك غدًا.

أنهى صالح المكالمة ثم ارتدى سترته ووضع سلاحه الناري في مكانه واتجه إلى الباب في عجالة، أغلق الإضاءة ثم أغلق الباب

خلفه.

***

سيارة تتوقف على جانب الطريق، يمسك من بداخلها «كاميرا» يصور بها طفلًا صغيرًا ممسكًا بيد أمه يمشي في اتجاه إحدى عيادات الأطفال، يلتقط له بعض الصور من اتجاهات مختلفة، يخفي «الكاميرا» عندما يرى سيارة أخرى تقترب وتقف أمام باب العيادة، يمعن النظر ليجد أن بداخلها الرائد إسماعيل برفقة زوجته التي تقبِّله ثم تهبط من السيارة فينطلق هو بها مسرعًا، تقترب جميلة من الأم والطفل وهي تقول:

- ألف سلامة عليك يا بطل، فيه تحسن؟

تمسح الأم على رأس الطفل:

- للأسف لأ يا دكتورة، كريم حالته بتسوء مش بيتحسن.

تومئ جميلة بتأثر، ثم تصطحبهما إلى داخل العيادة.

يخرج الرجل «الكاميرا» من جديد وتلك المرة يلتقط صورًا متفرقة لجميلة، ينتهي مما يفعله ثم يصدر ضحكات مرتفعه وهو ينظر إلى انعكاس عينيه في المرآة.

***

سفرة ممتلئة عن آخرها يجلس عليها صالح على رأسها وأمه بجانبه، وخطيبته لمى مواجهة لها، تمسك الأم بفرخة وتضعها داخل طبق لمى وهي تقول:

- يجب أن تأكلي كما ينبغي، لمى، لقد اقترب موعد الزواج، وبعدها ستحتاجين إلى الصحة مع مهام المنزل والحمل والإنجاب، حينها سيبدأ جسدك بالضعف، يجب أن تتحضري لهذا جيدًا.

تبتسم لمى وهي تاكل بنهم:

- أنا أحب طعامك حقًا، أريد أن أخبرك سرًا، أنت تقومين بالطهي أفضل من أمي.

تبتسم الأم وتضع المزيد من الطعام داخل طبق صالح الذى كان شارد الذهن ولم يستمع إلى كلمة واحدة من ذلك الحوار، تتبنه الأم:

- صالح، أنت لم تأكل شيئًا، نصيحة، عندما تعود إلى المنزل ألقِ بمهامك العملية خارج جدرانه، أرجوك، هذا لصالح الجميع.

يبتسم صالح إلى أمه مجاملة:

- حاضر، سأفعل، كل ما في الأمر أنني أعمل على قضية معقدة تستنزف الكثير من طاقتي العقلية والبدنية.

أمسكت الأم قطعة من اللحم وقامت بحشرها في فم صالح قائلة:

- لذلك عليك أن تأكل جيدًا يا حضرة الضابط.

ارتفعت ضحكات لمى والأم وأصيب صالح بشرقة فأمسك بكوب من الماء حتى يقضي عليها، ثم عاد إلى شروده بعد أن ابتلع ما في فمه، لاحظت لمى ذلك فقالت:

- هل أتيت بي إلى هنا كي تظل شاردًا؟ استمع إلى نصيحة والدتك،

ألقِ بمهام عملك فور دخولك المنزل، هذا وقت العائلة.

لم يستطع صالح سماع المزيد، لذلك قرر أن ينهي طعامه ويتجه إلى الشرفة لينعم ببعض الهواء والهدوء، أشارت الأم إلى لمى كي تتبعه ففعلت.

- هناك أمر خاطئ أليس كذلك؟

نظر لها ثم أشاح بنظره مجيبًا:

- هناك أمر يجب أن أخبرك به.

أمسكت بيده قائلة بتوتر:

- وأنا أستمع إليك.

نظر لها وقال بصوت منخفض:

- لكن أرجوكِ لا تجزعي.

أومأت برأسها بالإيجاب..

- من الواضح أنك منشغلة بتجهيز الشقة وإعداد العدة للزواج، لذلك لا تتابعين الأخبار، أليس كذلك؟

نظرت له وشعرت أن هناك مصيبة قادمة:

- لا تجمِّل الأمر.

لم يجِبها، فقط أخرج هاتفه وأعطاها إياه، نظرت إلى الشاشة وقرأت خبر تولي صالح لقضية يتابعها الملايين، فاتسعت عيناها

وقالت:

- يا أم الضابط، نحن بكارثة.

أخذ ينظر لها لائمًا، فقد خالفت آفاقه بعد عدة ثوان، دخلت الأم مسرعة إلى الشرفة كي تعلم ما هي الكارثة، فقالت لمى:

- لقد تولى قضية الساعة، إنه يطارد سفاحًا قتل حتى الآن رجلًا وفتاة والإعلام كله يتحدثون عنه، كما أن الصحافة أفصحت عن اسمه، وبالتالي سيكون هدفًا للقاتل.

امتلات عين الأم بالدموع، فأشار إليها صالح أن تهدأ:

- أنا لم أختر أن أتولى تلك القضية، أرجوكِ يا أمي، أرجوكِ يا لمى، لا تكونا حِملًا فوق حمولي الثقيلة.

تركهما ودخل إلى الصالة، فتح التلفاز وأشعل سيجارة، نظر الاثنان بعضهما إلى بعض ويبدو أنهما تفاجآ أنه أصبح يدخن.

- إننا في كارثة حقًا.

قالتها الأم وهي تنظر إلى لمى.

***

جلس الرائد إسماعيل داخل إحدى الغرف برفقة وكيل النيابة الذي أمر أن يحضروا له حنان طليقة المجني عليه الأول أسامة، دخلت إلى الغرفة وهي تبكي، وقبل أن تتفوه بكلمة أشار إليها وكيل النيابة أن تجلس وأمر العسكري أن يفك قيودها ففعل، جلست بينما هو

ما زال يراجع التقارير التي أمامه الخاصة بالطب الشرعي والبحث الجنائي، كلها كانت تشير إلى أن القاتل رجل، وأكد ذلك تواجد السائل المنوي مع الضحية الثانية، الكثير أيضًا من التحريات التي أجراها إسماعيل عن حنان أثبتت أنها لا علاقة لها بقتل طليقها أسامة، لذلك قال إسماعيل:

- أعتذر عن الأيام التي قضيتِها، كان عليّ أن أفعل ذلك حتى تتأكد النيابة من حقيقة الأمر، كنتِ مشتبه بها، وكان عليّ أن أتاكد من أنكِ بريئة.

ابتسمت له وهي تقول:

- الحمد لله، الحمد لله، أيمكننى المغادرة.

ابتسم لها وكيل النيابة وهو يشعل لفافة تبغ ويعطي أخرى إلى الرائد إسماعيل:

- يمكنكِ المغادرة، أنا اتصلت بزوجك وهو ينتظرك بالخارج الآن برفقة أبنائك.

أنهى كلماته ثم نظر إلى الكاتب بجانبه وقال:

- يُخلى سبيلها من سرايا النيابة إذا لم تكن مطلوبة على ذمة قضايا أخرى، التاريخ واليوم.

تهللت أساريرها واتجهت إلى باب الغرفة، قامت بفتحها ثم غادرتها مسرعة ولم تغلق الباب، ظل إسماعيل يتابعها بعينيه حتى رآها تحتضن زوجها بشدة وتقبّل أبناءها واحدًا تلو الآخر ثم ترحل

برفقتهم وهي في غاية السعادة، لوهلة تذكر أنه يمتلك هو الآخر أسرة تتمثل في زوجته، لكنه لم يفكر في الإنجاب قط، ضم حاجبيه ونظر إلى دبلة الزواج في يده ثم ابتسم.

حتى أكون صادقًا معك، أنا لن أعطيك طرف الخيط الذي يقودك إليّ ولن أعطيك أدوات للمساعدة في اكتشاف هويتي، لكنني سوف أجعلك تشارك معي. أمسك هذا السكين واختر من بين كل تلك الملفات الموضوعة أمامك، اختر ضحية جديدة، انظر اليهم! هناك الكثير منهم في انتظار قرارك، احمل هذه الكاميرا؛ فسنحتاج إليها فيما هو قادم لأخذ تذكار أخير، لا عليك، سأحمل أنا القناع الأسود، والآن أخبرني: من الضحية التي سأقوم بقتلها من أجلك؟

(4)

نظر إلى عدد أعقاب السجائر في تعجب، لقد قام بتدخين كل ذلك العدد خلال يوم واحد فقط، لم يكن مدخنًا منذ أيام، والآن نصف راتبه سيتم تحويله إلى مالك كشك السجائر على ناصية الشارع، الجلوس داخل مكتبه أمر مرهق، يشعر أنه حبيس ذلك المكان، وعلى الطرف الآخر القاتل حر طليق يبحث عن فريسة جديدة كضبع جائع نهم.

أخرج سلاحه الناري وأفرغ خزانته ثم قام بتعبئتها من جديد وهو يتساءل: أين شريكه في هذه القضية الآن؟ كيف يقضي وقت الانتظار؟ راجع كل التقارير مرارًا وتكرارًا، لكن من دون جديد، لم يبقَ سوى هاتف وحيد في انتظاره، هاتف من مباحث «الإنترنت»، سيكون في غاية السعادة إذا تمكن من حل القضية بعد توليه التحقيق بأيام، نفض تلك الفكرة عن ذهنه وحدَّث نفسه: «القاتل أذكى من هذا بكثير، ما أصاب دهشتي في الماضي وما زال يثير فضولي هو معرفة القاتل باسمي وطلبه العجيب أن أتولى التحقيق، ما المميز بي كي يزج باسمى في قضية مثل تلك، أنا حديث التخرج، قليل الخبرات، لم أكن أول دفعتي ولا أمهرهم، ولا حتى أشجعهم، لا شيء يميزني عن بقية أقرنائي، أنا لا أحد سوى شاب طموح لم يحقق أي شيء بعد»

كاد التفكير يفتك برأسه لولا أن أتاه الخبر المنتظر، أجاب على المكالمة بسرعة كبيرة واستمع بحرص:

- لقد حددنا عنوان وشكل المشتبه به وسنرسله إليك في الحال.. اسمه (طاهر حسين).

أغلق صالح المكالمة وأعد قوة كبيرة من أجل مداهمة واقتحام منزل ذلك الرجل فور تلقيه البينات. انطلق بالقوة مسرعًا، بعد أقل من ساعة كان وسط حي شعبي مزدحم، تمكن من إبعاد المدنين وأعد خطة للاقتحام تحسبًا أن يكون المشتبه به مسلحًا، علم أنه يقطن بالدور الثاني، صعد ومعه قوة ثم حطم الباب واقتحم الشقة ليجد ذلك الرجل برفقة زوجته وأبنائه يجلسون أمام التلفاز، لم يقاوم الرجل، وظلت زوجته تصرخ وتستغيث بمن حولها من الجيران، لكن صالح كان صارمًا للغاية وأمر بوضع القيود في يد الرجل وأخذه إلى مكتب التحقيقات على الفور.

انتهت المهمة سريعًا من دون عناء أو تكبد أي خسائر، لكن ما جعل الأمر مريبًا هو أن ذلك الرجل يبدو عليه التدين، حتى زوجته وأبناءه كانوا يستمعون إلى التلفاز الذي يعرض شكل طواف المسلمين حول الكعبة، شعر أن هناك أمرًا خاطئًا، لكنه يعلم أن القاتل يتمتع بذكاء كبير وقدرة عالية على المراوغة، لذلك حاول الاحتفاظ بكل تركيزة حتى إجراء تحقيق كامل معه ومواجهته بالجرائم.

انطلقت سيارت الشرطة التي تخطت العشر سيارات وغادرت المنطقة الشعبية وسط حالة من الترقب والتساؤلات من سكان تلك المنطقة الذين كانوا ينظرون إلى صالح من خلف زجاج السيارة نظرات توحي أنهم أناس بسطاء، لا يسعون أبدًا إلى الشر، لكنه يعلم جيدًا في قرارة نفسه أن الشيطان يستتر داخل تلك الأحياء متصنعًا

التقوى، ويبدو أن ذلك الرجل هو حليف آخر للشيطان.

***

توقفت لمى بسيارتها في القاهرة الجديدة، ثم هبطت وأعطت مفاتيحها إلى أحد العمال، ارتدت نظارتها الشمسية واتجهت إلى ذلك المطعم الذي يحمل اسمًا شهيرًا ويمتاز بفروعة الكثيرة حول العالم، فور دخولها قابلت عددًا من أصدقائها، في نفس ذلك الوقت كان هناك من يراقبها من الجهة الأخرى داخل أحد «الكافيهات» ويلتقط لها بعضًا من الصور وهو يستمع إلى موسيقى هادئة قام بوضعها العاملون داخل المكان لإضفاء جو من الهدوء، يرتشف من قهوته ويكمل تصويرها عن طريق «كاميرا» حديثة ذات إمكانيات عالية والتي تمكِّنه من التقاط صور واضحة وبجودة ممتازة من كل تلك المسافة.

اقترب منه أحد العاملين وطلب منه أن يرى ما يقوم بتصويره، كان شكله مريبًا حقًا، رجل يجلس داخل مكان مكيف وما زال يرتدي غطاء للرأس ويحمل «كاميرا» يوجهها إلى الشارع، لم ينظر إليه، لكنه أدار الشاشة في اتجاهه وأراه عدة صور يلتقطها لطائر يقف بالقرب من الطريق، ثم قال:

- أنا مشترك في مسابقة خاصة بقناة ناشيونال جيوجرافيك كأفضل صورة للعام، هل تمانع أن ألتقط لك إحدى الصور.

ابتسم الشاب وعدل من وضعية ملابسه، أصدرت «الكاميرا» فلاشًا ومعه أصدر الرجل الجالس ضحكة ثم قال:

- أخبرني..

نظر إلى الاسم المعلق على صدره وأكمل:

- أخبرني يا (أمجد)، هل تتمتع بذاكرة قوية لحفظ أوجه الناس؟

ابتسم الشاب ببلاهة ثم قال:

- أنا لا أنسى أي وجه قابلته أبدًا.

أومأ الرجل بالإيجاب وقال:

- أنا معجب بك حقًا، تتمتع بحس أمني وذاكرة قوية، وأنا أتوقع لك مستقبلًا مبهرًا.

أنهى كلماته وحاسب على ما شرب واتجه إلى الباب محاولًا أن يبعد وجهه عن «كاميرات» المراقبة ثم غادر.

بعد عدة ساعات، غادر أمجد بعد أن انتهى من عمله، اتجه إلى جراج أسفل المبنى حيث دراجته النارية التى ما زال يسدد أقساطها، وضع المفتاح، وقبل أن يدير المحرك انقض عليه أحدهم وقام بنحر رقبته بحركة واحدة قوية ومباغتة، قام بضبط «الكاميرا» على وضعية التصوير، ثم ارتدى قناعه الأسود والتقط صورة تجمعه بذلك الشاب المسكين، تركه ينازع الموت وأخذ يكتب على ظهر الصورة:

«لقد كان شابًا مهذبًا وقوي الذاكرة، لم يكن قتله في الحسبان، ولكم وددت أن أتركه على قيد الحياة، لكنه رأى وجهي، وهذا جزاء من يراه، لن يستطيع أحد يرى وجه الموت ويظل على قيد الحياة، هذه هدية متواضعة مني إليك يا حضرة الضابط صالح».

أنهى الكتابة ووضع الصورة على صدر الشاب الذي لقي حتفه على يد قاتل مريض، وقد وضعه القدر أمامه فى يوم أسود كسواد قلبه، تركه وحيدًا جثة هامده لديها الكثير لترويه، فهو الوحيد الذي تمكن من رؤية وجهه.

***

كان رجلًا ضخم الجسد غليظ الصوت، بعينين حادتين سوداوين وذقن طويلة، هادئ الطباع متماسك، وإنه قد أعد العدة لذلك اللقاء، تركوه واقفًا وبيده القيود أمام باب غرفة التحقيقات وبدأوا يرتبون مسار التحقيق.

خرج الأمين (أشرف) وأمسك به ثم دفعه إلى الداخل، لكن ذلك الضخم لم يبدِ أي ردة فعل عدوانية، فقط ألقى نظرة على الضابطين، أحدهما كان خلف المكتب والآخر على الطرف القريب منه، وهناك كاتب يدوِّن كل ما يقال، فبدأ إسماعيل حديثه:

- اسمك، وسنك، ووظيفتك.

ابتلع ريقه، لكنه ظل ثابتًا:

- طاهر حسين عبد القوى، خمسة وأربعون عامًا، أعمل في مجال بيع الملابس، أستوردها من الخارج وأقوم بتوزيعها على المحلات.

بادره الرائد إسماعيل:

- ما هي علاقتك بالمجني عليها دينا:

رفع نظره إلى أعلى في حنق ثم قال:

- سافلة، تدعو إلى الفجر، وتعمل في الدعارة وتجنيد الفتيات لتصوير الأفلام الإباحية.

تنبه صالح لما يقول، إنه يعلم أكثر من الطبيعي عن المجني عليها، فسأله:

- من أين أتيت بكل هذه المعلومات عن المجني عليها؟

ابتسم بسخرية وقال:

- لقد تسببت في الأذى لكثير من الفتيات ومنهن زوجتي، لقد أرادت أن تجرها لطريقها المظلم، لكنني علمت في الوقت المناسب وهددتها.

نظر الضابطان إلى بعضهما البعض، ثم قال إسماعيل:

- تقصد قمت بقتلها.

ظهرت معالم التعجب على الرجل:

- أنا لم أقتلها، لقد كنت في مدينة بورسعيد ولم أعد سوى أمس في وقت متأخر، كنت في عمل ويمكنكما سؤال موظفي الجمارك، قمت باستيراد كونتينر كامل من الملابس، وكنت أنهي أوراقه الجمركية طيلة أسبوعين مضت.

تفاجأ الضابطان بتلك المعلومة، فبادر إسماعيل بسؤاله:

- أنت كتبت لها عدة مرات: سوف أقوم باغتصابك ثم قتلك جراء

ما فعلتِ، وقد وجدناها كما وصفت.

ارتفع صوت الرجل:

- لا أدري، لقد كان تهديدًا فقط من أجل إبعادها عن زوجتي، لقد أرسلت إليها العديد من الرسائل، وعندما لم تستجِب كتبت ذلك على العام، لا يمكن أن يكون دليلكم في اتهامي هو تشابه ما قلت داخل تعليق على صفحتها مع ما حدث لها، يمكن لأي شخص مريض اقتناص الفرصة، أعتقد أن لديها المئات إن لم يكن آلاف من الأعداء جراء ما فعلته ببنات الناس، لديّ شهود ويمكنك مراجعة كاميرات الجمرك بنفسك.

تعقدت الأمور تمامًا، يبدو أنه ليس الفاعل، هكذا فكر الضابطان، ثم قال صالح:

- بالتأكيد سنراجع، وهناك أمر أخير، سنحتاج منك عينة من السائل المنوي الخاص بك.

ارتسمت ضحكة بلهاء على وجه الرجل قائلًا:

- هل كانت المجني عليها حامل وتريدون معرفة هوية الأب؟

باغته صالح وهو يصرخ به:

- بل تم اغتصابها، وهناك آثار وجدت للمني، وهذا سيكون دليل براءتك أو إدانتك.

تلعثم الرجل ثم أومأ بالموافقة وغادر بصمت برفقة الأمين أشرف، وبعد ساعتين انتهت الأمور تمامًا؛ فقد تأكد الضابطان من صدق

كلام طاهر، لقد كان في مدينة بورسعيد وقت ارتكاب الجريمة، كما أن التحليل الخاص به لم يكن مطابقًا للتحليل الذى وجد في مسرح الجريمة، كما لاحظ صالح أن ذلك الرجل وقَّع اسمه بيده اليسرى، وهذا دليل آخر على أنه بريء تمامًا؛ فقد أكد نادر أن القاتل بارع في استخدام يده اليمنى التي يقتل بها كل ضحاياه.

أُخلي سبيله ليعود إلى أسرته، لكن تم وضعه تحت المراقبة لمدة يومين، وبعدها تأكد الضابطان أنه يعيش حياة طبيعية برفقة زوجته وأبنائه، يقوم ببيع الملابس التي حصل عليها من مدينة بورسعيد، فرفعوا عنه المراقبة..

لقد باءت محاولتهما الأخيرة في العثور على القاتل بالفشل.

***

امتلأت المشرحة بالقتلى، وقف الرائد إسماعيل أمام جثة الشاب أمجد بعد أن اكتشفه أحد العاملين في الجراج ملقى أرضًا في إحدى زوايا الجراج برفقة تلك الصورة، فُتح الباب فدخل منه صالح، لم يسلم على الدكتور نادر كما كان يفعل دائمًا، بل ظل يراقب ذلك الشاب، أخرج علبة سجائر وأعطى واحدة لإسماعيل الذي ابتسم وهو يقول:

- علمناهم الشحاتة.

ابتسم صالح ثم سرعان ما اختفت بسمته وهو يقول:

- ثلاث ضحايا؛ أسامة، ثم دينا، والآن ذلك الشاب أمجد الذي قتل

فقط لأنه رأى وجه القاتل، ونحن نقف مكتوفي الأيدي، إنه لا يقتل من أجل الانتقام، أشعر أنه يستمتع بذلك.

أخذ إسماعيل نفسًا من لفافة التبغ ثم زفره وهو يقول:

- أرجِّح أنه مريض.

باغته صالح قائلًا:

- أو أنه يريد منا اعتقاد ذلك.

نظر إليه معقبًا على كلامه:

- أنت شكاك أكثر من اللازم.

- بل حريص، لا أريد أن أعتقد أمرًا، بل أريد أن أصل إلى طريقة تفكير ذلك القاتل.

كان الدكتور نادر يمرر مشرطًا حادًا على رقبة الشاب ويحاول أخذ مقاسات دقيقة للجرح، التفت إسماعيل موليًا وجهه.

- ما الذى تقترحه يا صالح؟

ظل ينظر إلى جثة الشاب قائلًا:

- ننتظر خطوته التالية، اترك الخصم يسدد الكثير من الضربات حتى يخطئ في واحدة بسبب الإنهاك، وقتها.. سدد له القاضية.

نظر الضابطان بعضهما إلى بعض ثم نظر أحدهما إلى جثة الشاب الملقى أرضًا وهي تُشرَّح والآخر ينظر في الاتجاه المعاكس حيث باب الخروج.

***

ما زالت الافكار تعصف بعقله يمينًا ويسارًا وكأنها أمواج عاتية تحاول النيل من سفينة عالقة وسط البحار، لم يدرِ كيف وصل بسيارته أمام العقار الذي يقطن به وكأنها تعرف طريق الوصول، شعر أنه ليس على ما يرام، تائه للغاية، عاجز لأقصى درجة، تمنى لو أنه يستطيع التراجع عن تلك القضية، لكنه عالق هنا الى الأبد، إما أن يقضي على القاتل، أو أن القاتل يذبحه في نهاية الأمر.

بينما هو على هذه الحالة فُزِع من شخص ما يقف بجانبه وقد ظهر من العدم وهو يطرق على زجاج سيارته، وضع يده على سلاحه الناري، فأشار إليه الرجل ورفع يده إلى أعلى:

- لا داعي، أنا فقط أريد التحدث معك.

ظل صالح ممسكًا بسلاحه، هبط من السيارة، بينما ظل هذا الرجل يخفي ملامحه ويرفع يده لأعلى:

- لن أطيل عليك، أعلم أنك في مأزق، وأنك في حالة من التيه، أتيت لمساعدتك.

أشار إليه صالح أن يزيح الغطاء عن وجهه:

- أرني وجهك.

فعل ما قيل له وأزاح الغطاء عن وجه قائلًا:

- اسمي خالد، اهدأ أرجوك حتى أستطيع شرح ما أتيت من أجله.

وضع صالح السلاح في جانبه، لكنه حافظ على المسافة وقال:

- ما الذي تعرفه عني كي تعرض مساعدتك.

ابتسم خالد مجيبًا:

- أعرف كل شيء عنك، اسمك صالح، ضابط برتبة ملازم أول، أُقحمت في قضية لا علاقة لك بها بطلب من القاتل، تعيش مع أمك في هذا العقار الذي بجانبنا، مقبل على الزواج من فتاة رقيقة وتحبك بشدة، أنا لست هنا من أجل ذلك صدقني، أنا هنا من أجل الموتى، أريد مساعدتك ومساعدتهم، إنهم لا يكفُّون عن التحدث معي.

قطّب صالح جبينه:

- كيف يتحدثون معك وهم موتى؟ من أنت؟

أشار إليه خالد أن يهدأ:

- أخبرتك أن اسمي خالد، أنا مُنطق الموتى، أعني أمتلك هِبة إنطاق الموتى لدقائق معدودة، ليس كل من مات بالطبع، ولكن من قتلوا ويريدون الخلاص والبوح بهوية قاتلهم.

شعر صالح أن هناك صداع يجتاح رأسه، فهو لم يفهم نصف الكلام.

- دجال، ساحر! كيف تفعل ذلك؟

صمت خالد قليلًا...

- أعرف أن ما أقوله صعب التصديق، لكنه حقيقي، أنا لم أتوقع أن تقتنع بما أقول من أول لقاء، لكنني يمكنني المساعدة في حل هذه

القضية، فقط أحتاج أن أقوم باستنطاق أحد الضحايا علَّه يخبرنا بشكل أو اسم القاتل وتتمكن من القبض عليه قبل أن يرتكب المزيد من الجرائم، هذا رقمي، أرجوك فكِّر، لن تخسر شيئًا، لكن بالطبع هناك من سيخسر حياته إذا تأخرت بالرد.

مدَّ خالد يده بورقة مكتوب بها رقمه، أمسك بها صالح وهو ينظر إليه غير مصدق ولا كلمة مما يقولها، لفَّ خالد الوشاح على وجه وقال:

- أعطني فرصة رجاء.

أنهى كلماته وسار مبتعدًا عن صالح الذي ظل يحدِّق به ويفكر بعرضه الجنوني، لم يكن من المؤمنين بالعالم الماورائي، لكن مَنْ في حالته ونفس موقفه يصبح مثل الغريق الذي يريد التعلق حتى لو بنصف قشة من أجل النجاة، وضع الورقة في جيب سترته واتجه إلى مدخل العقار بخطوات رتيبة.

***

يسعل بشدة، بينما تنظر إليه أمه بخوف، يبدو عليه الوهن، لكنه متماسك ومبتسم، إنها تأمل وتثق في الدكتورة جميلة التي قالت إنه سيتعافى إذا أكمل علاجه بشكل سليم رغم سوء حالته.

توقفت بالسيارة داخل جراج المنزل أسفل العقار، فتحت بابها والتفَّت إلى الجانب الآخر كي تفتح للطفل، لكنها فُزِعت عندما رأته ينظر وراءها بعين زائغة وعلى وجهه كل ملامح الرعب، التفتت ببطء وآخر ما رأته كان قناعًا أسود، بعدها تلقت ضربة أفقدتها الوعي.

أفاقت الأم وهي تترنح، ولم تدري كم مضى من الوقت وهي فاقده للوعي، تذكرت ذلك الرجل الذي يرتدي القناع، ثم فزعت عندما لم ترى كريم بجانبها، وقفت وصرخت باسمه، لكنه لم يجب، تجمدت في مكانها عندما رأت خيطًا من الدماء بقرب عمود ما يواري جسدًا غير واضح الملامح، تحركت خطوة وهي تخشى أن يكون طفلها قد أُصيب بمكروه، كلما اقتربت خطوة شعرت أن قلبها ينشق نصفين، وأن فلذة كبدها ليس على ما يرام، نادت باسمه من جديد، ولكنه لا يجيب، هرولت متتبعة آثار الدماء، ثم توقف فجأة وصرخت بأعلى صوتها وفقدت الوعي من جديد.

تجمع حارس العقار والجيران على صوت الصريخ، ليجدوا الأم فاقدة للوعي بجانب جثة ابنها الذي مات مذبوحًا وعلى صدره صورة تجمعه برجل يرتدي قناعًا أسود، مدَّ أحدهم يده وأمسك بالصورة ليلاحظ كلمات مكتوبة على ظهرها، أمعن النظر وقرأ ما هو مكتوب:

«لم يكن لدى كريم سبيل للنجاة، كان سيموت عاجلًا أم آجلًا بعد أن يتألم بشدة، أعلم أني لست رحيمًا، لكنني اتخذت القرار وكان على قائمتي، لذلك فعلت ما فعلته، عامة، هي محاولة جيدة منك يا صالح، تستحق التحية، كدت أن تمسك بي، لكن ذلك الرجل المتعصب لرأيه ساعدني حقًا، تهديده الأعمى لدينا جعلها حبيسة البيت، وبالقليل من التفكير والمراقبة لعشيقها الأبله تمكنت من معرفة مكان سكنها، لديَّ مفاجأة، أنا سأقتل مجددًا ومجددًا إذا لم يتنحَّ الضابط إسماعيل عن القضية، طلبي لم ينفذ بعد، أريد الضابط

صالح وحده من يحقق في قضيتي، هذا إنذار أخير، وإن لم يُنفذ ستكون هناك جثة كل ثماني وأربعين ساعة، من الوارد أن تكون في جراج مثل ذلك، أو دورة مياه عمومية، مسرح أو سينما، على باب شقتك إن أردت».

ألقى الرجل بالصورة من هول ما قرأ، ثم أخرج هاتفه الجوال وأجرى اتصالًا بالشرطة ليُبلغ عن الجريمة.

هل اكتفيت؟! تريد الاستسلام! لا أعتقد، حسنًا، سأكمل معك بالطريقة التي تفضلها أنت، أمامك خياران؛ إما أن أقوم بقتل صالح، أو أن أقتل أقرب الناس إليه، عليك الاختيار، وصدقني، لديَّ أسبابي الخاصة التي عندما تعلمها ستساعدني في إكمال مهامي، لكن رجاءً، لا تفشِ أسراري، أنا أثق بك.

(5)

الكثير من الضباط يجلسون داخل غرفة الاجتماعات على الطاولة الكبيرة الخاصة بالعميد عادل، يتشاورون فيما بينهم، بينما يجلس الرائد إسماعيل بجانب الملازم أول صالح في صمت ينظران إلى القادة من حولهم، وقد ارتفع صوتهم فزاد ذلك من إزعاج العميد عادل، فطرق بيده على المنضدة وقال بصوت جهور:

- أريد أن أستمع إلى الضابطين المكلفَين بالقضية، وبعدها سأنصت إلى كل واحد منكم، القضية أصبحت قضية رأي عام الآن، يتابعها كل الناس، كما أن القادة منزعجون للغاية من ذلك القاتل وتلك الجرائم المتتالية، لم يحدث ولن يحدث أن نقف عاجزين أمام قاتل وإن كان أذكى أهل الأرض، جمعتكم اليوم من أجل وضع خطة محكمة أو سماع اقتراحات والاستفادة من خبراتكم كأكفأ ضباط في ذلك الجهاز.

أنهى كلماته ثم أشار إلى الضابطين، وقف الرائد إسماعيل الذي كان يتمتع بثقة واضحة، ثم قال وهو يشير إلى الشاشة العملاقة أمامهم وهي تعرض صورًا للضحايا وصورًا أخرى للقاتل برفقتهم وهو يرتدي ذلك القناع الأسود:

- هناك بالخارج قاتل متسلسل يتمتع بالذكاء وعنصر المباغتة ويجيد التلاعب، استشرنا طبيبًا نفسيًا وعرضنا عليه ملفات القضايا فأبدى اهتمامًا كبيرًا، وبعد عدة أيام أبلغنا أنه توصَّل إلى عدة نقاط هامة في شخصية القاتل ودوافعه للقتل وطلباته غير المفهومة، لكنه

لم يستطع أن يساعدنا في توقع طريقة اختياره لضحاياه، لم نجد حتى الآن أي خيط يربط الضحايا، لم نعثر على دليل واحد واضح يقودنا إلى القاتل، لا بصمة وجدت في مسارح الجرائم، ولا كاميرا مراقبة استطاعت أن تلتقط صورة واضحة له، ودائمًا ما كان يرتدي غطاء للرأس ويبتعد عن أماكن الكاميرات، فقط استطعنا أن نحصل على عينات من «سائل منوى» في الجريمة الخاصة بدينا، ويعتقد شريكي في القضية الضابط صالح أنه قد تم تركه عن عمد لتضليلنا وأنا أتفق معه في ذلك، لذلك نحن أمام حائط سد ومجرم فائق الذكاء يجيد رسم الخطط وتنفيذها بدقة.

أنهى كلماته بينما ما زالت الشاشة تعرض الصور والتقارير، نظر العميد عادل إلى صالح وقال:

- نريد أن نستمع إليك بالطبع.

عدل صالح من هندامه ثم وقف قائلًا:

- لقد تحدث الرائد إسماعيل في كل الأمور تقريبًا، لكنه لم يذكر شيئًا هامًا أخبرنا به الطبيب الشرعي نارد في آخر مقابله، وهو الذي تولى تشريح جثامين الضحايا كلهم.. أخبرنا أن هناك احتمالية لوجود أكثر من منفذ للجريمة، وكان يقصد قاتلين وليس قاتلًا واحدًا، واستند في ذلك على وجود حمضين مختلفين «لسائل منوي»، من وجهة نظري أن هناك دافعًا غير معلوم وراء كل ما يحدث، عندما علمت في بادئ الأمر أن هناك قاتلًا يبحث عني ويريد الزج بي داخل متاهة وضع هو قوانينها، كنت أشعر أن هناك أمرًا خاطئًا، تشابه

أسماء، أو ضربة حظ وتشتيت، لكن مع تكرار طلبه لي بالاسم في كل مرة، وأخيرًا عندما قُتِل ذلك الطفل الذي لم يتجاوز العشرة أعوام، وطلب بكل ثقة أن أتولى أنا التحقيق وحدي، علمت أنني المقصود، وأن ما يحدث كله هو للإطاحة بي، لذلك أنا أعترف أمامكم برغبتي في قبول ذلك التحدي، وأن أكون مسؤولً مسؤولية كاملة عن توابع قراري، أرحب بشدة بوجود الرائد إسماعيل فأنا أتعلم منه في كل يوم، لكن لمصلحة الجميع، يجب علينا أن نقبل بطلب القاتل حتى لو صوريًا.

ابتسم العميد عادل وقال:

- إن كان صوريًا فأنا موافق، أريد أن أعرف آرائكم، الموافق يقوم برفع يده.

أكثر من النصف رفع يده موافقة على ذلك الرأي من ضمنهم الرائد إسماعيل، فأومأ العميد عادل بالموافقة وهو يقول:

- حسنًا، أنت مسؤول أمامي وأمام كل القادة عن قرارك، ولا تنسَ أنها أصبحت قضية رأى عام الآن، ستتابعها الصحافة عن كثب بتوجيهات مني، ستقوم بالتحقيق منفردًا، مسرح الجريمة لك بالكامل، الصحافة والإعلام سيشاهدونك وحيدًا وينقلون تلك الصورة، أما عن الرائد إسماعيل، فسيكون مكلفًا بمهام خاصة بعيدًا عن الاضواء، أعتقد أن القاتل يراقبكما عن كثب، أريد الحذر، وأريد الانتهاء من ذلك الكابوس في أسرع وقت، اجلسوا سويًا، ضعوا خطة ثم اعرضوها عليّ قبل تحرك صالح، انتهى الاجتماع.

وقف الجميع فور وقوف العميد عادل وتوجه كل منهم إلى مكتبه، بينما ظل الرائد إسماعيل برفقة صالح يتحدثان ويضعان خطة محكمة ينفذانها سويًا دون أن يلاحظ القاتل ما يحدث من خلف الكواليس.

***

العداد تخطى سرعة المائة والعشرين وهو ما زال يضغط أكثر، شارد الذهن، ينظر بين الحين والآخر إلى انعكاس صورة وجهه في المرآة، يتساءل عن شكل القاتل، أين يعيش، كيف ينام ليلًا بعد أن يقوم بقتل الأبرياء، ما التبريرات التي يضعها نصب عينيه بعد أن يمرر نصلًا حادًا على رقبة أحدهم، بعد أن يسلب روح طفل صغير، بعد أن يغتصب ويقطع أوصال فتاة في مقتبل العمر، بعد أن يلتقط صورة تذكارية تحوي كل ذلك الالم.

ضغط أكثر فازدادت السرعة، تساءل من جديد: «ما الذي يريده مني؟ أنا لم أتسبب في أذى لأحد، من أنت؟ أين تستتر عن ناظري؟ هذا ليس عادلًا بالمرة، لا تتمتع بأي شرف، كيف تكون شريفًا بعد كل ما اقترفته يداك؟»

القناع الأسود يبتسم ساخرًا من حيرته، يستمع إلى ضحكاته المستفزة داخل عقله». تنبّه أنه أوشك أن يتسبب في كارثة، ضغط المكابح وتوقف على جانب الطريق، بحث عن زجاجة مياه وتناول قدرًا كبيرًا منها، لاحظ أنه يفقد تركيزة، من الخطأ أن تتأثر بخطوات الخصم؛ فانت بهذا تحقق ما يتمناه.

أخرج محفظته وأمسك بصورة تجمعه مع أبيه وأمه، حاول أن يستعين بهما، أن يستمد منهما الشجاعة والطمأنينة، تذكر كلمات والده:

«لن تكون ذا قيمة حتى تمر بين شقي الرحى من دون أن تتحطم عظامك، وإن تحطمت فعليك أن تعيدها أكثر صلابة من ذي قبل، صالح، لكن لن تكون صالحًا حتى تختبر مدى نبل قضيتك، الطريق المظلم ليس سُبّة إذا كان في آخره باب النجاة، الطريق المضيء ليس نعمة إذا كان نوره زائفًا مخادعًا، ابحث عن ذاتك في أفعالك، ولتكن على قدر اختبارك».

قبّل الصورة ووضعها داخل المحفظة ثم أكمل طريقه إلى مسرح الجريمة الخاص بذلك الطفل الذي كان يخشى رؤية ما أصابه، لكنه مكلف بذلك، أن يمعن النظر في وجه الشيطان حتى يتبين ملامحه المزعجة، ويتشرب خصاله المنفِّرة حتى يصل الى طريقة تفكيره.

دقائق من صراع داخلي قضاها حتى وصل إلى مسرح الجريمة، عشرات الصحفين والمراسلين، هبط من السيارة وسط مئات الفلاشات المصوَّبة نحوه وكأنه نجم سينيمائي، أصوات متداخله تحاول أن تستخلص أي معلومة عن القاتل أو عن الضحية، تجاهلها جميعًا، لوهلة توقف الزمن به وهو محاط بهذا الكم من الاهتمام، أصبح ذا شان وأهمية من دون أن يفعل شيئًا، سرت رعشة أصابته بالرهبة للحظات. «تماسك» هكذا أخبر نفسه، رسم ابتسامة ثقة ونظر في اتجاه إحدى «الكاميرات» وقال:

- الوقت ينفد، أنا على بُعد خطوات منك.

ارتفع صوت الصحفيين، بعضهم أخذ يوجه الأسئلة إليه، وآخرون يوجهون اتهامات ويخبرونه بمدى التقصير، تجاوزهم بمساعدة رجال الأمن الذين أتوا مسرعين وأفسحوا له المجال.

هبط إلى الجراج وقد شعر بجسده يشتعل رغم برودة الطقس، أراد أن يجلس أرضًا لكنه لا يستطيع، وجد رجال البحث الجنائي في كل مكان، نظر إلى امرأة مصابة بالذهول تجلس على كرسي كبير، ويحاول بعض الجيران مواساتها أو إعطاءها أي شيء كي تقتات عليه، لكنها ظلت تنظر إلى الفراغ بعين جاحظة ويد مرتعشة، حالة من الصدمة لن يستطيع العقل تجاوزها سريعًا، ابتلع حنقه وأكمل دون أن يخرجها من حالة السكون، أرجأ أمر التحدث معها إلى موعد آخر، تقدم إلى أسفل أكثر فوجد الطبيب الشرعي نادر جالسًا أرضًا ينظر إلى جثة الطفل المسكين، تلك الزاوية لم تمكِّنه من رؤية مصاب الصغير، وتمنى لو أنه يستطيع أن يكمل مهام عمله دون النظر إليه، دفع نفسه نحو الأمام، ارتعشت أوصاله عندما وقعت عيناه عليه، ملاك ملقى أرضًا وسط دمائه الطاهرة، مكمم الفم، عنقه الضئيل منحور كشاة ما زالت تتعلم الوقوف، اغرورقت عيناه بالدموع، لكنه فضَّل أن يكمل، اقترب أكثر فلاحظ وجوده الدكتور نادر، ووقف وقد بدا عليه الحزن لأول مرة، تراجع إلى الخلف تاركًا المجال لصالح الذي انحنى وأمعن النظر أكثر، هناك إصبعًا مقطوعًا من كل يد، لماذا قد يفعل أحدهم ذلك؟

نظر إلى نادر الذي أومأ إليه وقال:

- وهناك اثنان أيضًا من كل قدم، لقد بتر القاتل أربعة أصابع من الطفل وأخذهم معه.

اعتدل صالح وقد احمر وجهه:

- فعل ذلك قبل قتله أم بعد؟

خلع نادر النظارة وقال:

- وماذا تفيد الشاة سلخها بعد ذبحها؟ لقد رحل الصغير على يد مسخ.

ازداد غضب صالح وأصر على الإجابة:

- فعل ذلك قبل قتله أم بعد أن صعدت روحه الطاهرة؟ اجبني يا نادر.

ارتدى نادر نظارته الطبية وقال:

- أعتقد أنه كمم فمه حتى لا يصرخ وهو يقوم بقطع أصابعه، وأعتقد أنه فعل ذلك خصيصًا من أجل توصيل رسالة إلينا، إنه يريدنا أن نخشاه ونعلم أنه لا يتمتع بأي رحمة.

هنا سقطت دموعه رغمًا عنه وأشاح بنظره بعيدًا عن الجثة محاولًا التماسك، أخذ يتمتم بكلمات يتوعد بها القاتل، ثم هدأ مع اقتراب الأم، مسح دموعه وبحث عن كلمات للمواساة وقبل أن يتحدث قالت:

- عِدني أن تأخذني يوم شنق من فعل ذلك بكريم.

ثم أخذت تبكي بشدة وهي تنظر له في رجاء، لم يتفوه بكلمة، فاقتربت منه أكثر وقالت:

- لماذا مات كريم؟ لم يقترف أي ذنب، لقد كان مريضًا، ألم تكن معاناته كافية؟ لم يلعب مثل من هم في سِنِّه، لم ينعم بنوم هادئ إلا وأصابه السعال الحاد، لماذا قطع أصابعه؟ لماذا جعله يعاني، ألم يكن كافيًا أن يذبحه في صمت، كريم لم يكن ليصرخ حتى. عِدني.

لم يتمالك نفسه، ظهرت دموعه داخل عينيه وقال:

- أعدك، ستكونين هناك وسيشنق أمام ناظرك.

ابتسمت وقالت:

- وأنا سأنتظر، حتى بعد مائة عام، أنا أصدقك.

أنهت كلماتها ورحلت وهي تتفوه باسم ابنها:

- كريم، كريم مات، ملاكي الصغير رحل إلى الأبد.

لم يكن بمقدوره أن يمكث أكثر من ذلك، اتجه صعودًا إلى باب الجراج، ارتدى نظارته الشمسيه حتى لا يرى أحد دموعه، اخترق الحشود في عجالة حتى وصل إلى سيارته، اقترب منه الأمين أشرف فقال:

- اترك الأم للغد، أريد كل الجيران وحارس العقار في مكتبي خلال ساعة، اطلب من رجال البحث الجنائي أن يفرغوا كل كاميرات المراقبة على بعد أربع عقارات من كل اتجاه.

أوما الأمين بالإيجاب، ثم اتجه إلى رجال البحث الجنائي، ركب صالح سيارته وأخذ يضرب بكفه عجلة القيادة ثم هدأ وأدار المحرك وغادر المكان مسرعًا.

***

عيناها ممتلئة بالخوف، فؤادها هواء، رجفة يدها لا تتوقف، فلذة كبدها بين شقي الرحى، الناس لن تسامحه إذا فشل في الإمساك بالقاتل، لن يعود طفلها إلى طبيعته بعد كل ما مر به، لم يتوقف لسانها عن الدعاء له أن يسدد خطاه، أن يلهمه الصواب، أن يحبب فيه جميع خلقه، أن يبعد عنه أبناء الحرام، صورته أمامها على شاشة التلفاز وهو يمر بين الصحفين والمراسلين، الأضواء ساطعة على عينه، ابتعدوا عنه رجاءً، افسحوا له المجال ليتنفس، اتركوه؛ فلديه هموم كالجبال، لقد أصبح وحيدًا في مواجهة شيطان يريد النيل منه، أصابت تلك الفكرة قلبها بسهم الفزع، ارتفع صوت الأذان، رسالة ربانية أتتها فرحمت ضعفها وشدة قلقها، أغلقت التفاز واتجهت كي تتوضأ وتسأل الله أن يحمي صالح ويوفقه ويقضي على شر عباده.

***

توقف بسيارته أسفل العقار الذي يقطن فيه، أشار إلى الحارس وأعطاه مفاتيح السيارة كي ينظفها ويضعها داخل الجراج، اتجه إلى المصعد وهو يجرجر أقدامه، يحتاج إلى الراحة، القليل منها، عمل طوال عامين متواصلين لم يأخذ فيهما يومًا واحدًا إجازة سوى الأسبوع الذي تزوج فيه، ضغط على ذر المصعد وانتظر وصوله،

صعد الى الدور المنشود، وصل أمام باب الشقة، نظر إلى الرقم المعلق بتعجب وكأنه أول مرة يراه، ابتسم، لقد أضاع الكثير من أيامه بعيدًا عن بيته وزوجته، وضع المفتاح في مكانه وفتحه، أغلق الباب وارتفع صوته:

- جميلة، أنا وصلت يا حبيبتي.

تعجب، لم تجيبه، كانت أول من يستقبله فور وصوله، نظر إلى ساعته، إنها السابعة مساء، الوقت مبكر للغاية للنوم، كرر مناداتها، أصابه القلق، اتجه إلى الغرفة وهو يعدو غير عابئ بحذائه الذي ما زال يرتديه، وجدها تجلس داخل الشرفة وهي تبكي، اقترب منها واحتضنها، نظرت له بلوم، لم يفهم سبب نظراتها، أمسك بيدها فلم تنظر إليه.

- ماذا بك؟ ما الذي حدث؟ هل أصابك مكروه؟

مسحت دموعها ونظرت إليه:

- كريم مات بسببك، مات لأنك تطارد القاتل، كان طفلًا رقيقًا.

تعجب من قولها قائلًا:

- كريم!! وما علاقتي به؟

سحبت يدها منه قائلة:

- طفل كان يعاني، اقتربت من علاجه، لكن القاتل لم يمهله، أتعلم أنني حضرت سبوعه، لقد كانت أمه صديقتي لأعوام، يبدو أن القاتل قام بمراقبتك وأراد أن يرسل لك رسالة واضحة، وكان الحبر الذي

كُتبت به الرسالة هو دماء كريم.

فزع من فكرة أن يكون ملامًا على مقتل طفل صغير.

- أنا كنت أقوم بمهام عملي، كيف تلومينني على مقتل الطفل؟ إنه مختل، يقتل من دون سبب، كنت أعمل طوال الأسابيع الماضية على الإمساك به، لكنني...

- لكنك فشلت والآن مات طفل جراء فشلك، أنت بلسانك قلت إنه مختل، يمكنه فعل أي شيء، أرجوك ابتعد، لا أريد أن أراك داخل كفنك، وأعتقد أنك لا تريد أن تراني مكان كريم.

ارتعب من قولها ووقف واحتضنها وهو يقول:

- أنا بالفعل ابتعدت عن القضية، اليوم كان آخرعملي في القضية، تولى صالح القضية وحيدًا منذ اليوم، سآخذ إجازة ونسافر بعيدًا فور...

قاطعته من جديد:

- فورا!! هناك أمور عالقة أليس كذلك؟ دائمًا ما تكون هناك أمور عالقة، أرجوك يا إسماعيل ابتعد، تلك كانت رسالة تهديد واضحة.

أحكم عليها ذراعيه وهو يقول:

- أعدك، سأبتعد، وأعدك لن يصيبك مكروه.

سندت راسها على كتفه وتشبثت به:

- وأنا أثق بك يا حبيبي.

***

انتهى صالح من التحقيق مع آخر اسم في القائمة التي تضمنت كل سكان العقار الذي كان يقطن به كريم وتضمن أيضًا حارس العقار وأصحاب المحلات القريبة وبعضًا من الأصدقاء، تذكر أن عليه أن يبلغ الرائد إسماعيل بالمستجدات وأنه وبعد كل هذه التحقيقات لم يصل إلى أي جديد، سينتظر تقرير الطب الشرعي بكل تأكيد ويتمنى أن يجد ما هو مفيد في تفريغ «الكاميرات» وتقرير المعمل الجنائي، أشعل لفافة تبغ وحمل فنجان القهوة واتجه إلى الشباك، وضع الفنجان على طرف الشباك وأخرج هاتفه الجوال ثم اتصل بإسماعيل:

- صوتك يبدو نائمًا، هل أصبح من صفاتك النوم مبكرًا؟

أصدر ضحكة لم يبادله إياها إسماعيل فأكمل:

- انتهيت للتو من التحقيقات في مقتل الطفل كريم، لم أعثر على شيء جديد، لكنني أعتقد أن تفريغات كاميرات المراقبة ستكون مفيدة.

أتاه صوت إسماعيل الناعس:

- جيد، لماذا تتصل بي إذن؟ اتصل بالعميد عادل فهو قائدك المباشر الآن.

ظهرت معالم التعجب على وجه صالح قائلًا:

- اتصل بك لأنك ما زلت تعمل معي على القضية، هل تتذكر ذلك، صوريًا فقط أنت خارجها.

ارتفع صوت إسماعيل من الطرف الآخر:

- والآن أصبح الأمر رسميًا، لقد اتصلت بالعميد عادل وطلبت منه أن أبتعد عن هذه القضية نهائيًا، ولك أن تتخيل، لقد قبل طلبي، الطفل الذي مات كان أحد المرضى الذين تقوم زوجتي بعلاجهم في عيادتها، كما أن أمه صديقة مقربة لها، القاتل أرسل لي رسالة تهديد واضحة، وأنا لست غبيًا لأقوم بتجاهلها، أنا أخاف على حياة زوجتي.. هل تعي ما الذى يحدث؟

نفس صالح دخان سجائرة وكأنه زاد همه أضعافًا مضاعفة.

- هل هذا قرار أخير؟

جاءه الصوت بعد زفير طويل:

- نعم، وأتمنى لك التوفيق، أنت وحدك الآن، كن على قدر المسؤولية، أنا أثق بك.

رسم صالح ابتسامة حزينة وقال:

- وأنا كنت أثق بك.. أراك على خير، ولا تقلق، أنا أتفهم خوفك.

أنهى صالح المكاملة ثم أنهى شرب قهوته، وألقى بلفافة التبغ من الشباك، وظل ينظر إليها حتى سقطت أسفل قدم شخص يقف أسفل المبنى وهو يرتدي غطاء للرأس ولا يتحرك، أمعن صالح النظر فوجد ذلك الشخص يرفع رأسه ليظهر جزء من ملامحه، لم يستطع تبينه من تلك المسافة، كما أنه اختفى سريعًا، إنه ذلك القاتل، يتابعه عن كثب، وقبل أن يتحرك هرول ذلك الشخص واتجه إلى سيارة كانت

على الطرف الآخر من الشارع، ركبها وغادر وهو ينظر إليه بعينين يملأهما التحدي.

***

موسيقى كلاسيكية ترتفع قادمة من سماعة كبيرة الحجم، خيال جسده الضخم يقترب من الحائط الذي يحوي العشرات من الصور موضوع على بعضهم علامة الإكس المميزة، حرك يده بنشوة عارمة وكأنه قام بإنجاز عظيم، اقترب من الحائط وأمسك بالقلم الماركر الأحمر ووضع علامة إكس على ضحاياه الجدد (دينا وكريم)، ثم أخرج صورة للشاب المسكين الذي كان يعمل داخل المطعم وألصقها بالحائط ثم وضع إكس عليها، تراجع وأخذ ينظر إلى الحائط ثم أخذ يشير بإصبعه إليه ويتحرك كمايسترو مندمج وسط معزوفة عالمية، وفجأة توقف عند رجل كبير السن، أخذ يضحك بشدة، اتجه إلى المكتب وبحث عن ملف يحمل صورة الرجل وقال:

-الأستاذ سمير، ستكون ضربة موجعة لك يا صالح بكل تأكيد.

أمسك الملف وأخذ يتراقص به أمام المرآة محطمة الزجاج، اقترب منها وأخذ يحرك رأسه يمنيًا ويسارًا حتى أصابه الإجهاد، فألقى بجسده على كرسي وثير وفتح أول صفحة في الملف.

***

جاهد وهو يحمل ذلك الصندوق الخشبي ثقيل الوزن على ظهره، الأمطار تتساقط بغزارة فوق رأسه، أصبح أكثر مشقة مع وجود كل هذا الكم من الطين اللزج، لم يكن يتجاوز العشرين من عمره

حينها، لكنه امتاز بالقوة البدنية والعقل الناضج والشخصية المميزة، الجميع يحبه ويقدِّره، لكنه ما زال منعزلًا منذ ذلك اليوم الذي سقط به داخل البئر، تبدَّلت حاله من طفل فضولي إلى طفل يحب الجلوس وحيدًا، يتأمل، يقرأ، يتحدث عن العالم الآخر، يطرح الكثير من الأسئلة على شيخ الجامع لكنه وقف عاجزًا أمامها، أصبح أذكى وقادرًا على تحصيل العلوم بسهولة كبيرة فاقت التوقعات، لم يكترث كثيرًا بالسفر، ومع ذلك كان يغيب بالشهور عن أقربائه الذين لقبوه بالمبدول، بينما ظلت أمه تنادي عليه باسمه المحبب (أبو الخلود) وعندما كان يسألها عن سبب تسميتها له بذلك الاسم كانت تخبره:

«إن السيرة أطول من العمر، وهناك من هم سيرتهم خالدة وأنت ستكون سيرتك كذلك خالدة كاسمك يا أبا الخلود»

أراد أن يخبرها كثيرًا عن ذلك الشيخ من عالم الجان الذي يلقنه الدروس وينمي قدراته، أراد أن يخبرها أنه يستطيع طرد الشياطين بل ومطاردتهم، أراد أن يخبرها بما هو مقبل عليه، ذلك المستقبل الذي يخطط له شيخه ويعده لأمر عظيم، لكنه التزم دائمًا بكلمته واعتاد أن يفي بعهده، وما أحزنه حقًا هو موتها دون أن تعلم حقيقة ابنها، فقد اعتقدت أنه غريب الأطوار يهوى الانعزل، أو أنه تزوج من الجان وربط نفسه بعهد يعرِّضه للخطر إذا عرف به الغير، التزمت الصمت وأبعدت عنه المتطفلين واكتفت بالدعاء له، تذكَّر ليلة دفنتها وهو ما زال يجاهد في الصعود على ذلك المنحدر الذي يقود في نهايته إلى البشر المعزول، تذكر عندما وقف أسفل تساقط الأمطار أمام قبرها لا يقوى على الحراك أو حتى الدعاء، تكفل إخوته بإنزالها

إلى باطن القبر وظل هو في مكانه من دون حراك، نعتوه بالجبان المتخاذل، قاطعوه وحمَّلوه نتيجة مرض أمهم سنوات بسبب غيابه، كرهه بعضهم، لكنه لم يُكِن لهم سوى الحب، فضَّل أن يتنازل عن ميراثه، اكتفى بلملمة أشيائه من كتب وملابس وبعض النقود وغادر، بنى منزلًا بدائيًا من الطين وقطع من الصخر الذي تطور مع الأيام وأصبح أفضل حالًا، بناه طوبة طوبة ووضع بداخله متاعًا بسيطًا، لم يكن يومًا يمتلك المال الوفير، لكنه امتلك العلم الغزير.

وصل إلى فوهة البئر، كان الظلام حالكًا والقمر مستترًا خلف الغيوم الكثيفة، نظر إلى باطن البئر وابتسم وهو يقول:

- أحضرت لك هدية، نجحت فيما كلفتني به، لقد تمكنت منه.

تراجع وربط الصندوق بحبل غليظ وقام بإنزاله ببطء حتى وصل إلى قاع البئر بسلام ثم قفز هو داخله، فور أن لمست قدمه الأرض حتى أضاءت العديد من المشاعل من حوله، اعتدل واقفًا وهو ينظر بفخر إلى ذلك العدد الكبير من الرجال الذين يرتدون الملابس والعمائم البيضاء من حوله، مكونين حلقة أشبه بالحضرة الصوفية، أخذوا يفسحون له المجال حتى وجد شيخه متربعًا على الأرض وهو مبتسم له، أشار إليه أن يقترب ويجلس.

- هل ما في الصندوق ما أعتقده؟

جلس خالد أرضًا وابتسم وهو يقول:

- نعم، لقد تمكنت منه في آخر لحظة، استدعيته كما أخبرتني، ونطقت الكلمات التي علمتني إياها ورسمت دوائر الطلاسم حولي،

ثم حبسته داخل نجمة كما نصحتني.

ابتسم الشيخ وقال:

- أعلم ما نفذته لكني أحب أن أسمع منك التفاصيل.

- سأخبرك، خلوتي امتدت لستين يومًا حتى تمكنت من تحصين الكهف، لم أترك شبرًا إلا ونصبت به فخًا لقبيلة زهاق، تذكرت كلماتك أن ذلك الشيطان لن يأتي وحيدًا لذلك صببت كل تركيزي على التحصين، ثم النجمة؛ كي أحجم قدراته وأتمكن منه، صدقني لم يكن الأمر سهلًا عندما حضر ومعه مئات من حراسه، لكنني استمتعت بقتلهم واحدًا تلو الآخر حتى استشاط غضبًا وتقدم نحوي وسقط في الفخ، قرأت الكلمات فتألم وانحنى، جاهد بشدة كي يجتاز مكان احتجازه، لكنه لم يتمكن وخارت قواه، سقط أرضًا؛ رأسه خارج النجمة وجسده ما زال بالداخل وقد تم فصلهما فور أن تعدى الحدود.

أشار له الشيخ أن يقترب ففعل، أمسك بيده ومسح عليها بحنان وقال:

- أصبحت صائدًا الآن، لكن لا تتفاخر بهذا الأمر، كونك مجهولًا لهم أفضل كثيرًا من أن تكون هدفًا لهم، طيلة الوقت سيبحثون عنك ويقتفون أثرك، لكنني سأعطيك اليوم هدية، حماية دائمة، مسحوقًا أبيض كلون قلبك، سأعلمك اليوم طريقة تحضيره وكيفية تحصين نفسك وسكنك به، سأعلمك سر الدائرة المنيعة وسأشرح لك ما أنت مقبل عليه، قم وأرني الهدية.

وقف خالد وجر الصندوق حتى وصل به أمام الشيخ وفتحه ثم أفرغ ما به، إنها رأس لكيان ما مفزع لا يمت لعالم الإنس بأي صِلة، أصدر الرجال الواقفون حوله صوتًا أشبه بالطنين، ثم اقتربوا منه واحتضنوه واحدًا تلو الآخر، لم يدرِ خالد أهو يحتضن رجالًا من الإنس أم من الجان، لكنه شعر أنه ينتمي لهم أكثر من أهله، وقف الشيخ وهو ممسك بتلك الرأس الشنيعة وألقى بها داخل النيران وهو يقول:

- خالد الآن خطا أول خطواته كفردٍ منا، أصبح صائدًا، وتمكن من مارد من قبيلة لم تتوقع يومًا أن يُقتل منها فرد على يد آدمي، سيجوبون الأرض بحثًا عنه، لكننا سنحميه ونجعله أقوى لما هو قادم، الآن يا خالد، هل أنت على استعداد أن تصبح مُنطِقًا للموتى؟

لمعت عين خالد، فاقترب خطوات من الشيخ الذي وضع يده على كتفه وقال:

- اخترتك أن تكون من كتيبة المنُطِقين ستكون قدراتك أعظم وأكبر، أنت تمتلك أكثر مما تعتقد يا خالد، ولأكون صريحًا معك، أنا أيضًا لم أعتقد أنك بتلك القوى أنت أكثر من موهوب، أنت حالة نادرة وسيحين وقتك.

أفاق خالد من شروده على صوت صراخ في الخارج، نظر من فرق الشباك ليجد عددًا مهولًا لم يشهده من قبل من جحافل الجان، المئات يحيطون بالمنزل من كل اتجاه، الرياح تشتد وأخذت تبعثر المسحوق الأبيض، فزع من هول ما يراه، لكنه علم أن عليه التماسك،

لقد اقترب من فهم وتطبيق ما قرأه في ذلك الكتاب، خرج وهو يحمل شكارة بها الكثير من المسحوق وأخذ يعالج الدوائر، لم يكن يفصل بينه وبين هذه المسوخ سوى متر واحد، هو داخل الدائرة وهم بالخارج، ارتفع صياحهم مع محاولة أحد المردة العبور، وبالفعل تمكن، لكنه احترق قبل أن يصل إلى خالد، أخذوا يتراجعون واحدًا تلو الآخر حتى أفسحوا المجال لكيان أسود عملاق بذراع وحيد، فطِن خالد أنه هو ذلك الشيطان الذي أراد قتله عند العبور، اندفع ذلك الكيان في اتجاه خالد وقبل أن يصل توقف تمامًا وبدا عليه الفزع، فقد بدا في الظهور من خلف خالد العشرات من الرجال الذين يرتدون الملابس والعمائم البيضاء، أحاطوا به من كل مكان وهم يرددون بعض الكلمات وكأنهم ينشدون ويتمايلون بطريقة صوفية.

***

أخذ يحاول الاتصال بها مرات ومرات، لكنها لا تجيب، ألقى بهاتفه وهو يزيد السرعة، شعر بالقلق عليها، إنها لا تجيبه منذ ساعة تقريبًا، فترة طويلة لم يعتد عليها، أصدر هاتفه صوت قدوم رسالة، هدَّأ السرعة ونظر إلى شاشة هاتفه، رقم غريب أرسل له صورة، فتح الصورة ليجدها خطيبته لمى وهي تجلس مع مجموعة من أصدقائها في أحد «الكافيهات»، لم يستطع تمالك أعصابه وتوقف جانبًا، اتصل مرة اخرى بخطيبته لكنها لم تجيب، حاول الاتصال بالرقم الذي قام بإرسال الصورة له فوجده مغلقًا، ارتعب، اتصل بأبيها وأمها لكنهما لم يجيبا أيضًا، اتجه مباشرة إلى بيت لمى، يعلم أن الوقت متأخر، لكنه يجب أن يطمئن عليها، كان قلبه يحدثه أنها بخير، لكن عقله يأبى أن

يصدق طالمًا لم تكن أمام ناظريه.

بعد ربع ساعة وصل إلى باب منزلها، نظر إلى ساعته فوجد الفجر قد اقترب، أخذ قراره، طرق الباب عدة مرات، ثم ضغط على الجرس، فتح له والدها وهو مفزوع وازداد خوفه عندما رأى أمامه صالح الذي بدا عليه التوتر.

- هل أنتم بخير؟ لمى بخير، أين هي؟

ارتجف الرجل وإشار إليه أن يدخل:

- نحن بخير يا صالح، ما الأمر؟ لمى ف حجرتها، تفضل، اهدا.

جلس صالح لخمسة دقائق في انتظار لمى حتى أتت اليه، اقتربت منه بعين ناعسة لكنها أصيبت بالهلع.

- هل أنت بخير؟ ما الذي يحدث؟ ماما، هل هى بصحة جيدة؟

لم يتفوه صالح بكلمة، احتضنها ثم قال:

- لماذا لم تجيبي على هاتفي؟

نظرت إليه.

- الوقت متأخر وكنت نائمة ولم أنتبه لاتصالك، هذا خطئي سامحني.

ابتسم وهو يمسح على شعرها.

- لا، لم يكن خطأك بالطبع، إنه خطئي وحدي، يبدو أنني متوتر بسبب تلك القضية.

جاء صوت الأم من خلف لمى معاتبًا:

- أنت محق في ذلك، لكن رجاءً لا تنقل توترك إلينا وخاصة إلى ابنتي لمى والتي من المفترض أنك تحبها.

اتجه صالح نحو باب الخروج:

- معك كل الحق، أنا أعتذر، لن يتكرر الأمر، سامحوني، مع السلامة.

حاولت لمى أن تتبع صالح، لكن أمها أمسكت بها.

- الوقت متأخر، عليه أن يكون أكثر ذوقًا ورُقيًا، وأن يفصل بين حياته العملية وحياتة الاجتماعية، اتصلي به في الصباح.

صعدت لمى إلى غرفتها بينما ظلت أمها تنظر إلى صالح بغضب وهو يتجه إلى سيارته ويغادر.

- أتمنى أن تغادر حياتها إلى الأبد، ستفسدها بكل أسف.. لكنني لن أسمح بذلك.

***

وضع فنجان القهوة بعد أن انتهى منها، نظر إلى صورة صديقه القديم الراحل، تنبَّه إلى زوجته التي تجلس برفقته، نظر إلى ساعة يده ثم وقف:

- أعتذر، لقد جعلتك تسهرين، يبدو أن صالح لن يأتي قبل الصباح، أرجوكِ أعطيه ذلك الجواب.. هذا الجواب أعطاني إياه طارق -رحمه الله- في آخر لقاء بيننا، أوصاني أن أعطيه لصالح في وقت أراه

مناسبًا، وأنا أرى أنه الوقت المناسب له، لعلي لا أراه أو أراكِ مجددًا، قضيت ديْني والحمد لله، رجاءً، سلِّمي عليه من أجلي.

اتجه إلى باب المنزل وهو يلقي نظرة أخيرة على صورة صديق طفولته وشبابه، أشار لها أن تغلق فودعته:

- شكرًا لكل شيء فعلته مع زوجي ومع ابني يا أستاذ سمير، لقد كنت خير صاحب وخير معلم.

اكتفى بابتسامة لها، واتجه إلى المصعد فهبط به إلى الدور الأرضي، لم يكن يفصله عن بيت صديقه سوى شارع واسع، فهو يقطن في العقار المواجه لهم، تخطى الشارع الواسع ببطء مستندًا إلى عكازة، اتجه إلى باب العقار وبحث عن الحارس لكنه لم يجده كعادته، اتجه إلى المصعد وضغط على رقم اثنين، فتح الباب ليجد الرواق مظلمًا، أخرج هاتفه وفتح كشافه وسار بحذر، وصل إلى باب شقته وهو يشعر أن هناك من ينظر إليه في الظلام، فتح الباب، وقبل أن يغلقه دفعه أحدهم، كان يرتدي غطاءً للرأس، سدد له لكمة أسقطته أرضًا، حاول الاعتدال، لكن هجوم ذلك الرجل كان قاسيًا، أمسك بغطاء رأسه محاولًا الدفاع عن النفس، سقط الغطاء، فرأى سمير وجه القاتل وكان هذا آخر ما شعر به، فقد أخرج ذلك المسخ سكينًا وغرسه في منتصف عنقه.

بعد ساعة، خرج القاتل من باب العقار وهو يعدل غطاء رأسه تاركًا جثتين؛ الأولى في إحدى شقق الدور الثاني، والأخرى في غرفة حارس العقار، وكلاهما منحورا الرقبة.

أعلم جيدًا أن القتل شرٌ، لكنه أيضًا قصاص، القسوة سيئة، لكنها تفرغ الصدور الملتهبة، الظلام لا يمكّننا من الرؤية، لكنه أيضًا سكن، الكثير من النور يضر العينين، وإن انتهجتَ اللين زاد هوانك على الناس، ومن لم يقتص عندما تسنح له الفرصة، فسوف يكون هو الضحية التالية، أكرر: أنا أثق بك، فلا تخُن ثقتي.

(6)

لجأ إلى هنا، ذلك المكان الذي يشعره بالأمان، يشعره بالهدوء، ذلك المكان الذي اعتاد والده أن يصطحبه معه بين الحين والآخر، كان يشير إليه من فوق تلك الهضبة المرتفعة، هنا قلعة صلاح الدين، وهناك خلف تلك السحب الأهرامات، وهذا هو برج القاهرة، ابتسم وشعر بالامتنان، إنه يرى كل شيء بوضوح ومن أعلى، جلس ينظر إلى القاهرة وهي تودع ظلام الليل، تنفس هواء باردًا ملأ به صدره، شاهد أول شعاع للنور يشق الأفق ويبعث الأمل في النفوس المرهقة.

عاد بظهره إلى الخلف ونام فوق هيكل سيارته وهو ينظر إلى الأعلى، سمع رنين هاتفه، أخرجه من جيبه واعتدل عندما رأى اسم الأمين أشرف:

- ما الأمر؟ جريمة قتل جديدة؟

هبط من فوق هيكل سيارته وهو يستمع إلى كلماته:

- جريمتان هذه المرة، حارس عقار ورجل مُسِن يقطن نفس العقار، سأرسل لك العنوان.

فتح صالح باب السيارة وانتظر الرسالة، وعندما فتحها وجد أنها بالقرب من مكان سكنه، فزع عندما رأى رقم العقار فأعاد الاتصال بأشرف:

- الرجل الذي قُتل، في أي دور؟

أجابه بصوت مرتفع تتخلله جلبةُ مَنْ حوله:

- في الدور الثاني، اسمه سمير سيف.

وقعت تلك الكلمات على مسامع صالح كالصاعقة، لم يدرِ كيف تمكن من القيادة، كل ما يعلمه أنه ذاهب لرؤية جثة صديق والده المقرب، إلى معلمه الجليل الذي عمل بنصائحه دائمًا وحتى وقت قريب كان على اتصال به، لطالما وقف بجانبه من بعد وفاة والده، تذكر مئات المواقف وعشرات الصور التي جمعتهم سويًا في مراحله المختلفة من العمر، تذكر يوم تخرجة من كلية الشرطة حينها وجده يبكي فرحًا وينظر له بفخر وهو يقول:

- الآن بإمكانك أن تكمل ما بدأه طارق، يمكنك أن تعمل لصالح هذا البلد كما فعل أبوك سابقًا.

ثم طبع قبلة على رأسه كما يفعل دائمًا، احتضنه بشدة وكانه ابنه، تذكر (نجلاء) ابنته الوحيدة التي تزوجت منذ عامين وسافرت من زجها إلى الخارج، تربّيا سويًا ودرسَا سويًا حتى ظن الأبوان أنهما سيكونان مناسبين لبعضهما البعض، لكنه شعر أنها أخته التي تفهمه وتقدِّره، بئر أسراره، سلمها إلى زوجها بكل ود، وكان في غاية السعادة عندما علم بحملها، وعندما رزقت بطفل أسمته صالح تيمنًا به، ما الذي سيخبرها به الآن، مات أبوها قتلًا، والآن سيتحتم عليه أن يأخذ بالثأر، لكن حقًا ما أزعجه هو فكرة أنه مات بسببه، القاتل يريد معاقبته على شيء لم يعلمه بعد، أخذت الأفكار تعصف برأسه مكونة غيمة أمام عينيه.

وصل أمام العقار، تردد كثيرًا أن يصعد إلى شقة معلمه، نظر خلفه

ليجد أمه تقف في شرفة منزلهم وهي تبكي، ثم دخلت إلى شقتها وأغلقت كل الأضواء حدادًا على شخص غالٍ، كاد أن يبكي لكنه تماسك، فضَّل أن يدخل غرفة حارس العقار قبل أن يصعد إلى أعلى.

بعد نصف ساعة كان قد انتهى من تفقد الغرفة الضيقة، وتحدث مع زوجة الحارس التي لم ترَ شيئًا، لكنها عندما عادت ووجدت زوجها ذبيحًا وقد سُلبت عيناه ولم يعد لهما وجود، وقفت منهارة تحتضن أبناءها.

صعد بجسد مرتعش إلى الدور الثاني، ألقى بالسيجارة أرضًا وتذكر بأسى عندما كان يختبئ منه في السابق عندما يفعل شيئًا خاطئًا، وكان إلقاؤه للسجائر خوفًا من أن يراه يدمر صحته، لكنه لن يتحدث معه تلك المرة، لن يسدي إليه مزيدًا من النصائح، إنه الآن جثة هامدة في انتظاره كي يجلب له الراحة بعد أن يتمكن من ذلك القاتل.

وقف أمام جثته مرهق النفس والجسد، يكاد يسقط أرضًا من شدة الحزن، لقد طُعن عدة طعنات متفرقة إحداهما في رقبته، طعنة غادرة مزقت معها كل أحباله الصوتية، كم كان صوته جميلًا في قراءة القرآن على مسامعة! كم كان دافئًا عندما كان يحتويه في ليالي الشتاء الباردة عندما تلح عليه ذاكرته وتعيد له ما حدث مع أبيه، كان يواسيه بجملة: «هو في مكان أفضل» وكان يصدقه، نظر له في ضيق وقال:

- أنت في مكان أفضل، أريد تصديق ذلك، أنت برفقة طارق الآن.

غادر مسرعًا ولم يسأل الدكتور نادر الذي تعجب من مغادرته، وقف أسفل العقار وبحث في ملابسه عن الورقة التي تركها له خالد، إنه عاجز تمامًا عن حل تلك القضية منفردًا، ما الذي سيخسره إن استعان بذلك الرجل أسمر البشرة، لا يبدو كلامه منطقيًا، لكن هناك الكثير من الأسرار، لن أنتظر فقدان عزيز آخر. هكذا حدَّث نفسه. وجد الرقم فاتصل به:

- أريد مساعدتك، هل تستطيع حقًا مساعدتي؟

جاءه صوت خالد هادئًا:

- نعم أستطيع.

***

أنهى يومه وترك الجثامين تتجه إلى المشرحة برفقة الطبيب الشرعي نادر، وطلب من الأمين أشرف أن يبدأ في التحريات وصعد إلى منزله، منهك للغاية، يريد الخلاص، يريد الاستسلام، لقد تلقى طعنة ستترك له جرحًا غائرًا لبقية حياته، فتح باب الشقة ليجد أمه تصلي، جلس بجانبها حتى انتهت، يريد أن يطمئن بوجودها وأن يطمئنها، علم أن جرحها القديم قد فتح، لقد مات أقرب المقربين إلى زوجها الراحل، لهم ذكريات مشتركة حتى قبل مولده، انتهت من الصلاة والتفتت إليه وهي تبكي، ثم احتضنته حتى هدأ قلبها.

تركته وهي تتجه إلى حجرتها قائلة:

- انتظرني هنا، لديَّ شيء لك.

تعجب، لكنه انتظر حتى عادت وبيدها جواب، أمسك به وجلست هي بجواره.

- كأنه كان يشعر أن أجله اقترب وبشدة، الأستاذ سمير كان هنا منذ ساعات قليلة، كان يريد مقابلتك وإعطاءك ذلك الجواب بنفسه، لكنك تأخرت فقرر أن يتركه ويعود إلى منزله حيث كان ملك الموت في انتظاره، لا أطلب منك أن تتماسك أو تكون صلب القلب، ابكِ وانتحب ثم توضأ وصلِّ وألقي القبض على ذلك المسخ المريض.

اقترب منها متسائلًا:

- ما مضمون هذا الجواب، ألم يقل لك ما بداخله؟

مسحت على وجه في حنان قائلة:

- إنه من أبيك، كان أمانة عند الأستاذ سمير طوال تلك السنوات، اقرأه وستعرف مضمونه، لكن رجاءً لا تخبرني، لقد اكتفيت.

أنهت كلماتها واتجهت إلى غرفتها، تركته وحيدًا برفقة آخر كلمات خطها والده قبل رحيله، احتضن الجواب وبدأ في البكاء، لقد مسَّت هذه الورق أكثر يدين يشتاق إلى لمسِها ولو لمرة وحيدة.

انتهى من صلاته وجلس على كرسي مكتبه، أمسك بالجواب وأخذ نفسًا عميقًا، فتح الجواب برفق، لا يريد إفساده، يريد أن يقرأه ويحتفظ به كذكرى مزدوجة لأبيه ومعلمه، اتسعت عيناه من هول ما قرأ، أخذت الأفكار تنساب داخل عقله كنهر جارٍ، بدأ يربط الأحداث ببعضها البعض، لكن الضباب ما زال موجودًا، عقله مجهد

يريد الراحة وصل إلى نهاية الجواب وتذكر ذلك اليوم الذي كتب أبوه هذا الجواب، لقد كان قبل سفرهم سويًا، قبل الحادثة بساعات قليلة، تذكر زيارتهم في ذلك اليوم لشقة الأستاذ سمير، لقد أمره والده أن يذهب للعب برفقة نجلاء وتركه يتحدث إلى صديقه قبل السفر، يبدو أنه أعطاه هذا الجواب تلك الليلة، تذكر عندما رآهما يحتضنان بعضهما البعض وكأنهما يودعان بعضهما، وقد كانا على صواب، تدافعت الذكريات داخل عقله حتى وجد نفسه أمام أبيه وهو يحتضر، ينظر إلى الطفل العاجز وينظر إلى لحظات أبيه الأخيرة، لكن كان هناك أحد ثالث يشاهد ما يحدث، رجل هبط من سيارة نقل، تلك التي صدمتهما على حين غرة، تذكر ملامح وجهه ونظرات عينيه المبتسمة وكأنه أخذ بالثأر منه، لا بل من أبيه، أراد تذكر بقية التفاصيل، لكنه شعر بغلبة النوم وأحس برغبة ملحة في إلقاء كل شيء حتى جسده، استسلم ونام وما زال الجواب على صدره ودموعه تتساقط على خديه.

في صباح اليوم التالي توقف صالح بسيارته أمام فرع أحد البنوك الشهيرة، دخل من الباب الرئيسي وطلب مقابلة مدير الخزينة الحديدية التي توجد أسفل كل البنك، أعطاه أرقام الخزينة والبيانات التي تثبت أنه الوريث الوحيد لوالده الراحل، بعد عدة دقائق قام باصطحابه أحد الموظفين إلى أسفل حيث الخزينة العملاقة المحصنة والتي تتكون من عدة خزائن صغيرة شديدة الحراسة، فتح له الخزينة وأعطى له المفتاح ثم تركه وغادر.

فتح صالح الخزينة فوجد عددًا كبيرًا من الملفات، أخذ يقلب داخل

الملفات فوجدها تحوي معلومات كثيرة عن شبكة كبيرة فاسدة مكونة من عدد ضخم من رجال الأعمال والتابعين لهم وكل ملف منهم يحمل اسمًا ومعلومات دقيقة عن تجارتهم ومدى فسادهم، حمل الملفات وترك الخزينة خاوية بعد أن سلَّمها للموظف ومضى على ذلك.

اتجه إلى المنزل حيث مكتب والده وجلس يرتب أوراقه وأفكاره، بالتأكيد واحد من ضمن هؤلاء هو من تسبب في الحادثة التي أودت بحياة والده في السابق ويبدو أن أحدهم عاد للانتقام منه، بات الآن الموضوع قريبًا، أجرى فحصًا شاملًا وتحريات عن هؤلاء فوجد معظمهم مات منذ فترة وآخرون تم تنفيذ حكم الإعدام بحقهم بعد أن فضحهم والده، الكثير من المجهود بذله حتى توصل إلى واحد فقط ما زال على قيد الحياة، لكنه يقضي عقوبة داخل السجن مدتها خمسة وعشرين عامًا، فكر قليلًا ثم قرر زيارته عسى أن يكون لديه مفتاح كل ما يحدث أو على أقل تقدير لديه من المعلومات ما تنفع، لكنه قبل أن يفعل ذلك عليه أن ينتهي من التحريات الخاصة بمقتل معلمه وصديق والده الأستاذ سمير سيف.

***

انتهى خالد من قراءة آخر فصول «السجل الأحمر» وأتقن ما به ولم يتبقَّ سوى التجربة من جديد، عليه أن يفتح تلك البوابة التي تخوِّل له رؤية ما يريده، يعلم أنه قادر على فعل ذلك، لكن ذلك الشيطان المريد متربص به ولا يريده أن يحصل على مراده، جلس يفكر في كيفية تنفيذ ذلك دون أن يصاب بأذى، لكنه يعلم يقينًا أنه

في مواجهة شيطان عتيد لن يتركه وشأنه ما دام على قيد الحياة.

أصدر هاتفه الجوال رنين فأمسك به:

- انتظرت هاتفك كثيرًا، هل حان الوقت؟

جاء رد صالح:

- نعم، سأرسل لك عنوان المشرحة، هناك سأمكِّنك من استجواب جثة الضحية.

قاطعه خالد:

- أنا لا أستجوب، أنا فقط أستنطقه في بضع كلمات.

سمع صوت صالح المنخفض:

- نعم، أيًّا كان، لا عليك، كل ما أريده هو أن تنجز الأمر سريعًا دون أن يلاحظ أحد وجودنا، هل سيستغرق الأمر وقتًا؟

صمت خالد لحظات ثم قال:

- سأفعل كل ما في وسعي من أجل مساعدتك والانتهاء من الأمر بسرعة، سأنتظر العنوان وأتحرك على الفور.

أنهى خالد المكالمة وبعد لحظات وصلته رسالة بعنوان المشرحة، أعد العدة وارتدى ملابسه وحصَّن نفسه جيدًا، ثم خرج من باب المنزل وهو يتمتم ببعض الكلمات حتى وصل إلى سيارته السوداء، أدار المحرك وتحرك بها مسرعًا وهو ينظر إلى انعكاس صورة ذلك الكيان المفزع وهو يحاول عبور الدائرة، لكنه ما زال لا يستطيع،

تعجب أنه لا يطارده وكأنه يريد شيئًا ما داخل المنزل.

***

وقف صالح يشاهد الدكتور نارد ينتهي من جثمان الأستاذ سمير سيف، يخيط آخر قطعة جلد بعد أن قام بشق كامل حنجرته وأجزاء من قفصه الصدري، تألم كثيرًا وهو يقف مكتوف الأيدي، تمنى لو أن هناك طريقة أخرى لإتمام الأمر بعيدًا عن المشارط والأدوات الطبية القاسية.

أنهى نادر عمله وخرج من المشرحة، متجهًا إلى صالح:

- هل أطلب من (يامن) إعداد فنجانين من القهوة؟

تذكَّر صالح شيئًا:

- هل تثق بذلك الرجل، مساعدك؟

قطَّب نادر جبينه مجيبًا باستغراب:

- نعم أثق به، فهو يعمل معي منذ سنوات طوال، لا تقلق، لن يتسبب في أي أذى، هل أعد فنجانًا بنفسي لتكون مطمئنًا؟

ابتسم صالح قائلًا:

- لا عليك، سأنتظرك هنا حتى تنتهى من كتابة تقريرك، أرجوك، لا تترك أي تفصيلة، أريدك أن تساعدني بكل ما أوتيت من قوة.

وضع نادر يده على كتف صالح:

- سأفعل، تأكد أني سأفعل كل ما أستطيع.

تحرك نادر في اتجاه غرفته، وفور دخوله أخرج صالح هاتفه الجوال واتصل بخالد ثم اتجه إلى باب المشرحة الخارجي ليجده في انتظاره، فتح له الباب وسمح له بالدخول، أشار له أن يتبعه حتى وصل إلى غرفة الأمن حيث «سيرفر الكاميرات» فلم يجد أفراد الأمن، قام بفصلها وتأكد أنها معطلة تمامًا، خرج واتجه إلى صالة التشريح، دخلا سويًا ثم اتجه صالح إلى الستائر وأغلقها ووضع قطعة من القماش على كاميرا المراقبة.

- هيا ابدأ في عملك، ليس لدينا الكثير من الوقت فسرعان ما يسكتشف أحدهم أن كاميرات المراقبة لا تعمل وسيعيدون تشغيلها.

وقف خالد أمام الجثة ونظر إلى صالح:

- اسمعني جيدًا قبل أن نبدأ، أريد منك عهدًا.

تعجب صالح معلقًا على طلبه:

- أي شيء، ابدأ، سأعطيك ما تريد.

ارتفع صوت خالد وتحدث بجدية:

- أنا لست دجالًا، ولا أريد منك أي شيء سوى أن تعاهدني أن ما سيحدث الآن سيظل سرًا بيننا لا يمكنك إفشاءه، وقتها لن أستطيع مساعدتك من جديد، ولن يكون القاتل هو الخطر الأكبر، صدقني أنا سأفتح الآن بابًا قابعًا بين العالمين، فجوة من الجحيم.

صمت صالح واكتفى أن يومئ برأسه:

- أعاهدك، سأحفظ السر.

أخرج خالد زجاجة من المياه وشرب ما بها دفعة واحدة، ثم اتجه إلى المنضدة الحديدية، أزاح الغطاء ثم أمسك برأس سمير وبدأ بالتمتمة، مرت ثوانٍ ظن صالح بها أنه أمام ساحر أو دجال من نوع ما وشعر أن عليه إيقافه، لكنه تجمد في مكانه عندما وجد معلمه السابق يرتعش وينتفض وكأن الروح قد عادت إليه وما أثار دهشته حقًا عندما سمعه يتحدث إلى خالد:

- لقد رأيته قبل أن يقتلني، أريد القصاص، أريد الثأر منه.

أمسك به خالد وأحكم قبضته على رأسه وهو ينظر إلى صالح الذي دمعت عيناه.

- أريد منك أن تصفه لي، بهدوء وبكامل التفاصيل، وبعدها يمكنك الرحيل لكنني أعدك أننا سنثأر لك.

صمت الرجل فجأة ثم فتح عينيه واعتدل وفجأة نظر إلى صالح وأشار إليه وهو يقول:

- لا أريد منك الثأر، بل أريد من صالح أن يقتله كما قتلني.

دبَّ الرعب في قلب صالح وكاد يتحرك فأشار إليه خالد وأمسك بالرجل وأرقده من جديد ثم مرَّر يده على عينيه وأغلقها وهو يقول:

- إذن صِف القاتل لصالح وهو سيثأر لك.

أخرج صالح هاتفه الجوال ثم بدأ بتسجيل كل ما قاله جسد سمير، وبعد أن انتهى أراد أن يغادر فقال:

- لقد انتهيت، أريد الرحيل، أريد أن أرتاح.

تمتم خالد ببعض الكلمات فهمد جسد الرجل وكأنه لم يتحرك منذ ثوان، شعر خالد بدوار شديد يجتاح رأسه، وبدأت قطرات الدماء تسيل من أنفه، تنبّه له صالح، فوضع الهاتف في جيبه ثم اتجه إليه وسنده وأخرجه حيث سيارته وجلس برفقته حتى استعاد عافيته، أراد أن يسأله الكثير من الأسئلة، لكنه وقبل أن يتفوه بكلمة قال له خالد:

- ما رأيته منذ دقائق هو أحد الأسرار في ذلك الكون، ما رأيته حق وليس بسحر أو دجل، إنه أحد العلوم الربانية التي يمنحها الله لمن يشاء، أتمنى أن أكون قد وفّيت بوعدي وساعدتك.

ابتسم صالح وقال:

- أكثر مما تتصور، هل سأراك مجددًا؟

أدار خالد موتور السيارة وقال:

- إذا احتجت مساعدتي ستجدني.

أنهى كلماته وانطلق بسيارته مبتعدًا وترك صالح متصلب الجسد لا يشعر سوى أنه رأى معجزة، لقد تحدث الميت وأعطى لهم مواصفات القاتل، حان دور صالح في المباغتة.

***

أمسك بالرسمة وظل ينظر إلى تفاصيلها، ثم ضعها أعلى المكتب

وقال:

- هل أنت واثق من ذلك الشاهد، يمكن أن يكون مخطئًا في وصفه.

ابتسم صالح وأمسك بالرسمة التي قام أحد رجال البحث الجنائي الخاص بالمواصفات برسمها بعد سماع التسجيل الصوتي:

- ليس لديه أي مصلحة كي يكذب، كان أحد جيران الأستاذ سمير وقد شاهد القاتل وهو يهرب أسفل العقار، تمكن أن يرى ملامح وجهه بوضوح.

تعجب العميد عادل:

- ولماذا لم يتحدث بذلك ويعطيك مواصفاته أثناء التحقيق؟

كان صالح قد أعدَّ إجابات لكل الأسئلة:

- كان خائفًا أن يكون هدفًا للقاتل، لكنني أكدت أننا سنعلن للصحافة أن هناك إحدى كاميرات المراقبة تمكنت من رؤية وجهه.

ابتسم العميد عادل قائلًا:

- فكرة ذكية، لقد نضجت وأصبحت جاهزًا حقًا للعمل بذلك الجهاز، أراهن أنك ستكون من أكفأ الضباط خلال أعوام قليلة، لا مزيد من الانتظار، انشر تلك المواصفات في كل أقسام الشرطة والكمائن، أريدك أن تنهي تلك القضية في أسرع وقت.

وقف الضابط صالح وأدى التحية العسكرية وغادر المكتب مسرعًا وهو متلهف للإيقاع بذلك القاتل الذي سلبه أحد المقربين إليه، لقد

ارتكب ما سيصل به إلى حبل المشنقة لعدة مرات.

صدقني، أنا لست شيطانًا كما تعتقد، أنا فقط أبحث عن الحق، أنا أعلم أنني قاتل، وأعلم أيضًا أنك تكرهني، لكنني لا أكرهك، أنا لا أكره سوى أعدائي، فهل أنا عدو لك الآن، حسنًا، إذا كنت عدوًا لك فأنت عدوي منذ اللحظة، ولا مزيد من الألعاب لقد سئمت تدليلك طيلة الوقت، وأنا غاضب حقًا من ظنك السيء تجاهي.

(7)

هبطت من سيارتها وهي تتذكر ذلك الطفل جميل الطلة رغم وهن جسده الضئيل، تذكرت وقت مولده وحضورها للسبوع الخاص به، نظرت إلى ساعة يدها فوجدت الساعة تخطت الحادية عشرة مساءً، لم تعتد أن تتأخر لمثل ذلك الوقت، اتجهت إلى باب المصعد وهي شاردة الذهن، انتظرت لحظات حتى وصلت إلى الطابق الخاص بشقتها، لكنه كان مظلمًا، فتحت كشاف هاتفها وتحركت عبر الرواق وهي ما زالت تفكر في كريم.

اتجهت جميلة إلى باب الشقة وأمسكت بحقيبة يدها، أخذت تبحث عن المفاتيح بتوتر، سمعت صوت أنفاس قريبة، وجهت الكشاف تجاه الصوت، لكنها لم تجد أحدًا، هدأت وفتحت الباب.

أضاءت النور وألقت بالحقيبة، ثم التفتت لتغلق الباب لتجد شخصًا ضخمًا يقف أمامها وهو يرفع رأسه مرتديًا قناعًا أسود، نظر إليها بابتسامة مريضة ثم ركلها بقوة أسقطتها أرضًا، دخل وأغلق الباب خلفه ثم انقض عليها.

***

جلس متربعًا على الأرض وهو مغمض العينين، يحاول تذكر تلك الصور، هناك ذلك الرجل المُسن الذي استنطقه؛ «سمير»، وطفل صغير، وامرأتان، ورجلان آخران لا يتذكرهما، شعر أن هناك من ينظر إليه، فتح عينه فوجد شيخه يجلس أرضًا متربعًا ومواجهًا له:

- لقد أخذت ما لا يخصك، إنه يتنمي إلى عالمنا، أعده لي.

قطَّب خالد جبينه:

- ولماذا أعيده لك؟ هل كان لك من الأساس كي أعيده؟

تجهم وجه الرجل:

- ما زال لا يخصك، بل يخص بني جنسي ونحن نعطيه من يستحقه ومن يلتزم بالعهد.

ابتسم خالد ساخرًا:

- بل تقصد من يظل خادمًا.. ظننت أنني واحد منكم كما أخبرتني.

ارتفع صوت الرجل:

- كنت واحدًا منا رغم أنك من طين، لكنك الآن لست سوى عدو، أعطِني الكتب وسأرحل.

أغمض خالد عينيه في حنق، ثم قال:

- وإن لم أفعل؟

وقف الرجل وقد بَدا أكثر طولًا وعرضًا.

- من الأفضل أن تهرب في أسرع وقت، أنت لا تدري ماذا جلبت لنفسك من هلاك، علم جميع بني جنسي أنك وحيد الآن، متطفل اقتحم عالمنا وسرق منه وقتل وأصاب آخرين، تمتع بآخر أيامك يا آدميّ.

- أنا لا أصدق حقًا أنك تمكنت من خداعي طوال هذه السنوات، كنت تعلم حقيقتي منذ البداية، كنت تعلم ما أنا قادر عليه، لذلك استغليت قدراتي في حروبك الخاصة مع بني جنسك.

تعاظم جسد الشيخ قائلًا:

- أنت لست سوى أداة استخدمتها، عبد مسخر لي وقد تمردت على سيدك، على من علمك وعلى من حماك، لكنك الآن عدو.

- أنا لم أكن سوى عدو منذ البداية والآن لا مزيد من الخداع، سأحتفظ بما أملك ولا أريد حمايتك، سأتدبر أموري.

- صدقني، أنت ضعيف للغاية وأبعد ما يكون عن حماية نفسك، وسترى.

قالها واختفى تمامًا من أمامه وكأنه لم يكن موجودًا من قبل.

***

وقف أسفل المبنى الأمني يحاول الاتصال بزوجته، لكنها لا تجيب، لديه مأمورية هامة لكنه يشعر بالقلق عليها، شعور لم يراوده من قبل، ألم غير مبرر يجتاح روحه، قرر أن يلغي المأمورية وأن يتجه إلى منزله.

بعد نصف ساعة وصل إلى جراج العقار الذي يقطن به، ما زالت لا تجيب على هاتفها، تعجب من عدم وجود حارس العقار، اتجه إلى غرفته فلم يجده، ازداد قلقه وتفاقم شعور الخوف داخل صدره من دون مبرر، صعد إلى الدور الذي يقطن به واتجه مسرعًا إلى باب

شقته، صدم عندما وجده مفتوحًا، تصبب عرقًا رغم برودة الطقس، دفع الباب فأصدر أزيزًا، تقدم إلى الداخل، وجد آثارًا للدماء، اندفع بسرعة يتتبعها حتى وجدها، وجد جثتها الذبيحة أصابته الصاعقة، ارتمى أرضًا يحتضنها، غير مصدق أنها فارقت الحياة، فقد النطق وأصبح صوته مبحوحًا لا يقوى على الكلام، عُقد لسانه، ارتعشت أطرافه، حاول أن يحملها لكنه سقط بها أرضًا من جديد، يبكي ويعتذر، لكنها لم تشعر فقد ماتت، هرول إلى باب الشقة يصرخ ويطلب سيارة الإسعاف، اجتمع الجيران وشاهدوا الدماء تغطي ملابسه، تشجع بعضهم ودخلوا إلى شقته ووجدوا زوجته وقد فارقت الحياة، علموا أنه تحت تأثير الصدمة رغم قوته على التحمل، أبلغوا الشرطة وهو مسلوب الإرادة وكأنه طفل فقد أمه، أبعدوه عنها بصعوبة وبدأوا في مواساته على موتها، نهرهم ولَكَمَ بعضهم، لكنهم تمكنوا منه في نهاية الأمر، أغلقوا الحجرة واجلسوه وظلوا معه حتى دوى صوت سيارات الإسعاف والشرطة.

كان ممسكًا بصورة تجمع جثة زوجته مع القاتل وهو يرتدي القناع الأسود وقد كتب عليها:

«كيف استطعت أن تتوصل إلى ملامحي، لقد اقتربت، أريد أن أحصل على إجابات، لم يتمكن أحد من رؤيتي إلا ومات، إن لم أحصل على إجابات ستكون هناك جثة كل ثلاثة أيام وأعتذر عن الألم الذي سببته للرائد إسماعيل فهو يستحق كل المواساة».

رفع نظره فوجد صالح يقف أمامه دامع العينين، لم يقوَ على الوقوف فأشار له أن يجلس على كرسي قريب وظل ينظر إلى بيته

الذي تحول إلى مسرح للأحداث، بيته هو وزوجته هي الضحية الجديدة، تألم في حنق وكتم غضبه عندما رأى رجال البحث الجنائي يعبثون بمحتويات المنزل ويتحركون كما يحلو لهم ذهابًا وإيابًا، والآن أتى شريكه السابق الذي يصغره سنًا كي يحقق في مقتلها، لام نفسه وأحس أنه المتسبب في قتلها، لقد قتلها مرات ومرات؛ عندما أهملها، عندما تركها وحيدة وهي بأمسِّ الحاجة إليه، قتلها عندما تزوجها، لم يكن يستحقها وكانت تستحق هي أكثر منه بكثير، والآن ماتت بسببه مرات لا يمكنه إحصاؤها، نظر إلى الدكتور نادر الذي خرج من غرفة النوم بعد أن فحص جثة جميلة، نظر له مواسيًا وطلب من صالح أن يتحدث معه على انفراد، وقف صالح ووضع يده على كتف إسماعيل ثم اتجه برفقة نادر حتى خرجا من باب الشقة.

- هناك أمر أريد إخبارك به ولا أريد أن أزيد من معاناة إسماعيل.

ابتسم صالح ساخرًا:

- معاناته! لقد قتلت زوجته للتو.

خلع نادر نظارته:

- لم تقتل وحدها، جميلة كانت حامل في شهورها الأولى وأظنه لا يعلم هذا حتى الآن.

نظر صالح إلى نادر وبدا على وجهه الحزن ثم نظر إلى إسماعيل الذي ما زال ممسكًا بصورة لزوجته وقال:

- لقد عاقبته الحياة بقسوة.

بعد مرور ساعتين وقف صالح بجانب إسماعيل وهو ينظر إلى جثمان زوجته بعد أن وُضعت داخل حاوية سوداء ليتم نقلها إلى سيارة الإسعاف التي ستقلها إلى المشرحة، لم يكن يتوقع أن يراها تغادر المنزل يومًا وهي هكذا، لم يتصور أن يدخل المنزل ولن يجدها بعد الآن، اتجه إلى الشرفة وظل ينظر إلى جثمانها وهو محمول إلى سيارة الإسعاف، توقف قلبه عن النبض وقد سلب الأمان وهو يرى سيارة الإسعاف تغادر، تصلب جسده وكاد أن يسقط لولا أن أمسك به صالح، دفعه وغادر المنزل، اتجه إلى سيارته وانطلق بها مسرعًا.

***

عمَّ الصمت بمكتب العميد عادل الذي ظل يرمق إسماعيل بوجه حزين، ينظر تارة إلى صالح ويحثه على التحدث، لكن تهرب الكلمات منهم جميعًا فبدأ الرائد إسماعيل كلامه بعصبية مفرطة:

- أريد أن أعود لتولي تلك القضية من جديد، أعلم أنني من طلبت أن أتركها، لكنني أريد العودة والعمل عليها وحيدًا، رجاءً.

كانت الدموع تلمع داخل عينيه، نظر إلى العميد عادل الذي تحدث بصوت منخفض:

- لا يمكننى أن أوافق، أنت تعلم ردي قبل أن تسألني، لا يمكنك أن تعمل تحت كل هذا الضغط النفسي يا إسماعيل، أنت في إجازة مفتوحة حتى تستعيد رباطة جأشك وسيتولى صالح التحقيق كما اتفقنا، لقد اقترب من القبض على ذلك الشيطان.

ارتفع صوت إسماعيل:

- لقد قتل زوجتي داخل منزلي وتخبرني أنه لا يمكنني أن آخذ بثأرها، هل تطلب مني أن أقف مكتوف الأيدي؟

ارتفع صوت العميد عادل وطرق بيده المكتب بقوة:

- أنا لا أطلب منك، أنا آمرك، يبدو أن مقتل زوجتك أفقدك اتزانك وأنساك كيف تتحدث مع قائدك، ظننتك أكثر قوة، التزم الهدوء ونفذ التعليمات، لا أريد أن أراك حتى تهدأ، تفضل يا حضرة الرائد قبل أن أوقفك عن العمل وأحيلك إلى التحقيق.

وقف إسماعيل وهو ينظر إلى صالح وإلى العميد عادل بغضب وغِل وكأنهما يعترضان طريقه، لم يتفوه بكلمة وتحرك في اتجاه باب الخروج، فتحه وأغلقه خلفه بقوة وهو منفعل.

نظر العميد عادل إلى صالح وقال:

- يبدو أنك تمكنت من استفزاز القاتل لدرجة كبيرة، خطوة نشر ملامحه كانت صحيحة رغم نتيجتها المؤلمة، أكمل ما تفعله، أنا أثق بك.

صمت صالح وشعر العميد عادل أنه يريد التحدث فقال:

- هل تريد ترك القضية؟ إذا كنت تأثرت بما حدث فيمكنني تعيين ضابط آخر بدلًا منك لتولي التحقيق.

حرك صالح رأسه يمنيًا ويسارًا نافيًا:

- لا، أريد أن أكمل، كل ما أريده فقط هو تعيين حراسة على والدتي

وخطيبتي، أريد أن أكون مطمئنًا وأنا أعمل على القضية.

ابتسم العميد عادل وقال:

- وأنا موافق، سأعين بنفسي طقم الحراسات الخاص بهما، لا تقلق..يمكنك المغادرة الآن.

أدى صالح التحية العسكرية وغادر المكتب، رفع العميد عادل سماعة هاتفه وطلب من أحد الضباط الحضور على الفور إلى مكتبة برفقة قائد فرقة الحراسات الخاصة.

***

الطقس البارد أجبره على العودة إلى السيارة وإحضار الجاكيت الثقيل وارتدائه، شيء ما يزيد من برودة الطقس في ذلك المكان أمام المشرحة، وكأنها تبث الخوف والبرد معًا كعرض من عروض الجعمة السوداء من كل عام، بخلاف أن ذلك العرض دائم طوال السنة.

أخرج هاتفه الجوال وحاول الاتصال بخالد من جديد، لكنه لا يجيب، يريد منه استنطاق جميلة كما فعل مع سمير لعلها تنطق بمعلومات تقربه أكثر من حقيقة القاتل، فبعد أن قرأ الرسالة على ظهر الصورة تبين أن الوصف الأخير لم يكن دقيقًا للغاية، بل قريبًا كفاية ليزعج القاتل.

خرج الدكتور نادر من باب المشرحة واتجه إليه وهو يحمل كوبين من القهوة:

- الطقس بارد هنا للغاية، لندخل إلى مكتبي.

أمسك صالح بالقهوة وقال:

- لا، أنا على وشك الرحيل.

تعجب نادر وهو يرتشف من القهوة:

- لقد أتيت للتو، هل هناك جديد في التحريات؟

نظر إلى أعلى مجيبًا عليه:

- لا جديد، أخبرني، هل تأكدت؟

أومأ برأسه إيجابًا:

- نعم، كانت حامل، كيف حاله.. حال إسماعيل؟

ارتشف من قهوته قائلًا بأسى:

- في غاية السوء، لقد تم إيقافه عن العمل.

- توقعت أن يحدث هذا، لكنه لن يكف عن ملاحقة القاتل، أنا متأكد.

تركه صالح واتجه إلى سيارته.

- سأعمل على منعه حفاظًا على مستقبله الوظيفي.

نظر له نارد متسائلًا:

- أتظنه يعبأ بمستقبله؟ لقد سُلب منه منذ ساعات.

أدار صالح المحرك وقال قبل أن ينطلق مسرعًا:

- سأكون على اتصال بك، فور أن تنتهي من التقرير أخبرني.

***

فكَّك الفراش وتركه خارج الغرفة، أزاح الأثاث ولملم الثياب، أسدل الستائر وأغلق الشبابيك وأضاء الغرفة بكشاف كبير الحجم، علق الصور على الحائط الذي كان يحمل صورة تجمعه بها، صورة زفافهما، يوم أن وقَّعت على عقد وفاتها، أخذ ينظر إليهما ويقرأ ملفات التحقيقات والتحريات كثيرًا، أمسك بالصورة المقربة لملامح القاتل وظل ينظر إليها لعدة ساعات وكأنه يطبعها داخل عقله، أمسك بمفكرته وأخذ يدوِّن بها بعض الملاحظات، ثم يعود وينظر إلى صورة القاتل من جديد.

مرت ساعات طويلة وهو ما زال يدخن، ويعمل على حل الطلاسم والألغاز، بالتأكيد هناك رابط، لقد كان صالح على حق، إنه لا يعمل عشوائيًا، بل كل شيء مرتب ودقيق للغاية. هكذا حدَّث نفسه.

***

فُتحت بوابة السجن ودخل صالح إلى المكان المخصص للزيارة، جلس في انتظار آخر رجل على قيد الحياة من الرجال الذين أوقع بهم والده في السابق، انتظر دقائق حتى وصل إلى الغرفة رجل كبير السن يدخن سيجارة وينظر إلى صالح بتعجب، جلس وهو يخرج دخانًا من فمه:

- هل أنت هو؟

تعجب صالح من قول الرجل:

- أنا من؟ من الذي تقصده؟

ارتفعت ضحكات الرجل:

- الطفل الصغير، الحادثة، عندما تمكنت من أبيك، ألا تتذكرني؟

دمعت عين صالح، فابتسم الرجل وأخذ نفسًا من السيجارة:

- إذن أنا على حق.

تماسك صالح وقال:

- هل أنت من تسبب في قتله؟ قتل أبي؟

أومأ الرجل بالموافقة:

- نعم بالطبع، لقد أوقع بي، دمر تجارتي، كان عليَّ الانتقام، لكنني تركتك على قيد الحياة، وأرى أنك الآن ضابط تكمل ما بدأه أبوك في السابق أليس كذلك؟

تنهد صالح وهو يحاول أن يواري غضبه وكرهه للرجل:

- نعم، أنا على قيد الحياة، ولكن من دون أب، أخبرني، هل أنت وراء كل ما يحدث؟

توقف الرجل عن الابتسام وقال:

- وما الذي يحدث؟ أنا لا أحب طريقة والدك هذه، ما الذي تريد

حدوثه أكثر من ذلك، أنا سأقضي بقية عمري هنا بسبب تحقيقات أجراها أبوك سابقًا، والآن أنت تحاول اتهامي بجرائم أخرى.

نظر صالح إلى عين الرجل وكرر سؤاله:

- هل تتلاعب بي؟ تريد إقحامي بدوامة من الجرائم، وتهدد عائلتي، وتقضي عليّ كما فعلت مع والدي، أخبرني الحقيقة قبل أن أحيل أيامك القادمة إلى جحيم.

بدأ الرجل في السعال، وبدأت الدماء تنساب من بين شفتيه وفتحات أنفه، احمرت عيناه وسقط أرضًا يرتجف، أتى الطبيب سريعًا وحضر ضباط السجن يشاهدون ما يحدث للرجل الذي يوشك أن يفارق الحياة وهو ينظر إلى صالح، ثم تفوه بكلمة أخيرة.

- لست أنا، لقد اكتفيت.

أخذ صالح نفسًا عميقًا وتركهم وغادر السجن وهو يشعر أنه في دوامة كبيرة ابتلعته وأوصلته إلى قاع صلب ارتطم به وفقد القدرة على التفكير.

***

علامة إكس وضعت على صورة جميلة، ومعها أصدر القاتل ضحكة مرتفعة وأخذ يدور حول نفسه في نشوة عارمة، اتجه إلى مكتبه وجلس، أخرج من درج المكتب زجاجة من الخمور وصب ما بها داخل كأس، ثم نظر إلى المرآة من أمامه وأشار لنفسه محيِّيًا ثم تجرع ما بداخل الكأس وهو يضغط على ذِر تشغيل الموسيقى

ويحرك يده متماشيًا مع اللحن.

أعتقد أنني أربكت كل حساباتك، وأعتقد أيضًا أني أسبقك بخطوة أو عدة خطوات، أنت عدوي الآن، هل نسيت؟ لكنني لست أكرهك، أنت شريكي، فقد اخترت معي الضحايا، والآن، أطلب منك أن ننسى كل الخلافات التي حدثت بيننا، أنا حائر للغاية، هناك العشرات من الملفات أمامي، من فضلك، ساعدني في اختيار الضحية التالية، أنا أثق بك.

(8)

لم يكف عن التدخين طوال ساعات مضت، بحث كثيرًا داخل الملفات التي تركها له والده الراحل الكاتب الصحفي طارق محمود، ترك العديد من الملاحظات وكأنه تنبأ بموته قريبًا، ساعدته تلك الملاحظات كثيرًا في بحثه عن هوية القاتل، كان مقتنعًا للغاية أن من يقوم بكل تلك الجرائم واحد من اتباع أو أقارب رجل من رجال الأعمال الذين تحويهم الملفات، من يقف خلف الكواليس شيطان من صنع أحدهم، أو ابن عاد للقصاص، أو أخ آلمه موت أخيه، أو حتى تابع وفيّ أراد الانتقام من صالح ومن أمه ومن أي شخص كانت تربطه علاقة بوالده الراحل.

دوّن بعض الملاحظات داخل مفكرته التي نظر إليها وابتسم وتذكر من علّمه ذلك الأمر، الرائد إسماعيل، أراد أن يتحدث إليه عبر الهاتف، لكنه تراجع بعد أن سمع طرقات على الباب مكتب والده، إنها أمه، قام بإطفاء لفافة التبغ وفتح الشبابيك بسرعة، دخلت أمه تحمل صينية من الطعام وتنظر إليه بلوم:

- أصبحت مدخنًا الآن يا حضرة الضابط.

حاول أن يساعدها، لكنها سبقته ووضعت الطعام على المكتب وجلست على الطرف الآخر منه:

- لا تقلق، لن أقوم بقرص أذنك أو إلقائك بما في قدمي كما كنت أفعل معك وقت الصغر، أنت الآن لديك أسبابك وضغوطاتك، ولك عقل راجح سيعود بك إلى الرشد، صحيح أننى لن أضربك على

التدخين، لكنني بكل تأكيد سأفعل إذا عدت ووجدت الطعام كما هو، كُل ثم أكمل عملك.

أنهت كلماتها وغادرت، نظر لها وهي تغلق الباب خلفها وهو يبتسم، تذكر أيام الصغر، الدفء، والأمان، الهدوء، والطمانينة، أزاح الطعام جانبًا ثم أمسك بهاتفه الجوال وبحث عن رقم ثم اتصل:

- مساء الخير، أعرف أنني أتصل بوقت متأخر، سأقوم بإعطائك بعضًا من الأسماء أريد قيدًا عائليًا كاملًا لكل واحد منهم، تلك هي الخدمة وسترد علي في أسرع وقت يا صديقي.

أنهى المكاملة ثم رأى خيال أمه يقترب من الخارج من خلف زجاج الباب، فبدأ يتناول طعامه سريعًا وهو يترقب دخولها كطفل صغير.

***

توقفت بسيارتها حديثة الطراز أمام باب «الفيلا» التي تقطن فيها، هبطت واتجهت إلى الباب الخلفي لتحضر هدية عيد ميلاد والدتها، هي تعلم أنها ما زالت تحب الهدايا، لذلك اختارت لها ساعة أنيقة باهظة الثمن، أمسكت الهدية وأغلقت الباب واتجهت إلى باب «الفيلا»، لمحت خيالًا ضخمًا يقترب منها، التفتت لتجد رجلًا يرتدي ملابس سوداء ويمسك بسكين حاد يريد طعنها، وقبل أن يصل إليها سمعت دوي إطلاق نيران قادم من ضابط حراسات خاصة وصل في الوقت المناسب، أصيب القاتل برصاصة في قدمه وسقط منه السكين، هرول القاتل وقدمه تنزف دمًا حتى وصل إلى سيارة كانت جاهزة للانطلاق قبل وصوله، ما إن ركبها حتى تحركت به مسرعة

وهو يتألم، هرول الضابط وركب سيارة الشرطة وطارده، لكنه لم يتمكن من اللحاق به، لكنه تمكن من تصوير لوحة السيارة.

وقعت لمى أرضًا من هول ما رأت، لولا ذلك الضابط الذي كُلف بحراستها لكانت الآن بين الأموات، خرج الأب والأم وعلى وجهيهما كل علامات الخوف، فقد كان صوت الطلقات النارية مرتفعًا للغاية، وقد سمعه كل سكان ذلك الحي الراقي، احتضنت لمى أمها فأخذتها إلى الداخل، بينما شكر الأب ضابط الحراسات الذي ظل واقفًا أمام المنزل برفقة بعض العساكر، ثم أخرج هاتفه الجوال واتصل بقائدة وأخبره بما حدث بكل تفاصيله.

أرسل الضابط بيانات السيارة إلى شرطة المرور لتعميم بياناتها، وبعد فترة قصيرة تمكنت إحدى الدوريات من العثور عليها فارغة، وتبين أن مالكها الأصلي أبلغ عن سرقتها قبل يومين.

***

قلبه يرتجف وهو يعلم أنه كاد أن يتسبب في مقتلها، لوهلة شعر أنه مذنب كما هو حال إسماعيل، تساءل طوال الطريق: ماذا لو كان أصابها مكروه، كيف كان سيكمل حياته وهو يحمل دماءها بين أصابعه، ذلك اللعين يعلم جيدًا متى وأين يسدد ضرباته، لا أحد يمكنه توقع تحركاته، كيف يفعل كل ذلك وحده، لا بد أن هناك من يساعده، بالتأكيد ليس إنسانًا طبيعيًا، بل شيطان في هيئة إنسان، لماذا لا يرتكب أخطاءً، لماذا لا يرتكب الحماقات، لماذا لا نعرف مراده، ماذا تريد أيها السافل؟ ما الذي تريده مني؟ ما الذي ارتكبته بحقك؟

إن كانت حربًا، فلماذا لا يحق لي الدفاع حتى عن نفسي وعن أحبابي؟ بركان ثار بداخل صدر صالح وهو يفكر في كل الاحتمالات، كره ذلك الشخص كما لم يكره أحد من قبل.

توقف وهبط من سيارته، اتجه إلى ضابط الحراسات وشكره على تفانيه في عمله وتدخله في الوقت المناسب، سمع منه ما حدث وطلب من أحد رجال البحث الجنائي أن يحصل على عينة من دماء القاتل إن استطاع.

اتجه إلى باب «الفيلا» وضغط على الجرس، انتظر أن يفتح له، وبعد لحظات فتح له الأب وقد بدا على وجهه الغضب، سمح له بالدخول فاتجه إلى الطابق العلوبي بعد أن طلب منه أن ينتظر ويشرب قهوته... بعد دقائق عاد برفقة الأم لكنه لم يصطحب معه لمى، نظر لهما صالح وقد تفهم الأمر.

- أستاذ رشاد، مدام غادة، أنا لا أجد الكلمات المناسبة لأنقل لكما شعوري بالقلق، أنا أعتذر عن ما حدث، أنا من تسبب بالأمر، إنه يسعى للنيل مني؛ لذلك فكر في أذيّة من أحب، أكرر اعتذاري.

ارتفع صوت غادة:

- نحن لا نريد اعتذارك، لا فائدة منه، لمى كانت ستقتل بسببك.

صمت صالح قليلًا ثم أراد التحدث، فقاطعته غادة من جديد:

- اتركها وشأنها إذا كنت تحبها.

جاءت تلك الكلمات كالصاعقة على مسامعة، نظر إلى والدها

فوجده يشيح بنظره عنه.

- هل يمكنني أن أتحدث مع لمى، أو على الأقل توديعها؟

تحدث رشاد لأول مرة:

- ستجعل الأمور أصعب عليها، تعلم أني أحبك، لكني أحب ابنتي أكثر، أرجوك، يكفي هذا يا بني.

وقف صالح وهو دامع العينين، خلع دبلته ونظر إليها بتردد، قبَّلها وتركها أعلى منضدة قريبة، ثم تركهم وغادر وهو يكتم غل الدنيا داخل صدره، اتجه إلى سيارته ثم وقف ونظر في اتجاه غرفة لمى، لمح خيالها بالداخل تقترب من الشباك، لكنه فضَّل أن يرحل قبل أن تراه ويراها، أخذ قراره وانطلق مسرعًا.

***

نبتت ذقنه قليلًا، أصبح أنحف، أهمل في نفسه، ينام قليلًا ويفكر كثيرًا، يلوم نفسه طوال الوقت، يبكي وينتحب، ثم يدخن ويكمل تفكير، أمسك بلفافة تبغ وحاول إشعالها لكن نفد غاز قداحته فبحث عن أخرى، اتجه إلى الصالة حيث ترك أثاث الغرفة، فتح درج الكومود فوجده الخاص بزوجته الراحلة جميلة، وجد صورة تجمعهما سويًا، انهمرت دموعه، قبَّل الصورة ووضعها، وقبل أن يغلق الدرج لمح ملفًا خاصًا بأحد معامل التحاليل، أخرجه ونظر بداخله من باب الفضول وتساءل: «هل جميلة كانت تعاني مرضًا ما ولم تخبرني به؟ كيف تخبرني وأنا لم أكن متواجدًا من أجلها»، قرأ التحاليل ثم تجمدت ملامحه، علم حقيقة الأمر، جميلة كانت حامل،

ونتيجة التحاليل إيجابية، التاريخ يعود قبل شهر من مقتلها، صرخ بشدة، علم أنه خسر للتو روحين، زوجته وطفلهما الذي لم يعلم بوجوده، انحنى أرضًا وأخذ يبكي حتى أصيب بالإرهاق وفقد وعيه.

***

يكتم صراخة وهو يضع داخل فمه قطعة قماش ويزيل الرصاصة التي استقرت داخل قدمه اليمنى، بعد عدة محاولات تمكن أخيرًا من إخراجها، ثم أحضر سكينًا ووضعه على النار حتى أصبح ملتهبًا وقام بكيِّ الجرح، رغم قطعة القماش الموضوعة بفمه إلا أن صوت صراخه خرج مرتفعًا، شعر بإرهاق كبير، زحف في اتجاه المكتب وأمسك بزجاجة الخمر وأخذ يتجرع منها وهو يقول:

- لم يكن ذلك في الحسبان، لأول مرة يسبقني صالح بخطوة، أنا غبي، كان عليَّ أن أكون أكثر حرصًا، ذلك الشاب يتعلم سريعًا، يستفيد من الأخطاء.

أخذ يردد تلك الكلمات وهو ينظر إلى انعكاس صورته في المرآة، ثم فجأة صرخ مجددًا من الألم وألقى بالزجاجة في اتجاه المرآة فتهشمت وتحولت إلى قطع صغيرة.

***

أخذ يقرأ بنهم من ذلك الكتاب، كلما أنهى جزءًا زاد شغفًا لإكماله، إنه كنز حقيقي، طريقة ستمكنه من استنطاق الموتى بشكل أقوى واستخلاص المعلومات بدقة أكثر، سيتمكن أخيرًا من رؤية ملامح مما رأوه، بينما هو يقرأ أتاه اتصال من صالح فاجأب:

- حضرة الضابط، أعلم أنك حاولت الاتصال بي مرات عديدة.

جاءه صوت صالح متسائلًا:

- أين كنت؟ أريدك اليوم في نفس العنوان، هناك جثة أريد استنطاقها.

ابتسم خالد وقال:

- أعلم، زوجة الضابط الآخر، شريكك، لو لم تتصل بي كنت سأتصل بك، الآن أصبحت قادرًا على معرفة معلومات أدق.. سأكون هناك في الميعاد.

أنهى المكالمة ونظر إلى الخارج من بين فروق الشباك فوجد الشمس بدأت بالمغيب، خرج مسرعًا وهو يحمل كيس الملح وأخذ يتمتم على الدوائر من حول منزله.

***

علم أن مكوثه في المنزل لن يفيد، انتحابه وصراخه وحيدًا لن يعيداها إليه، أراد أن ينتهي من ألمه، اتصل كثيرًا بالدكتور نادر لمعرفة الوقت المناسب لاستلام جثمان جميلة لدفنها، لكنه لم يكن يجيب، سبّه كثيرًا ونعته بالسافل، جرّب حظه مع صالح، لكنه لم يكن يعطيه معلومات تفيد سير القضية، دائمًا ما كان يطلب منه الصبر وأن يثق به، لم يكن ليثق به أو بغيره، النار تأكله من الداخل وهم لا يشعرون، كان عليه التحرك والعمل منفردًا من دون علمهما، راقب صالح حتى وصل إلى المشرحة، تعجب من رؤيته يتسلل إلى الداخل

برفقة ذلك الشاب أسمر البشرة.

كان يحفظ مداخل ومخارج المشرحة عن ظهر قلب، لذلك تسلل إلى الداخل بهدوء ومن غير أن يلحظه أحد، سبقهم إلى غرفة التشريح وتوارى خلف خزانة كبيرة الحجم، وانتظر بينما هم يتولون أمر تعطيل «الكاميرات».

بعد دقائق سمع وقع خطوات تقترب، فتح الباب، تبين له من بصيص ضوء رؤية صالح وخالد، ذلك الشاب أسمر البشرة الذي لم يره من قبل، ملابسه وشكله جعلوا الأمور مريبة، لكن ما زاد من الريبة عدم وجود الدكتور نادر، كان عليه الانتظار.

فتح صالح ثلاجات الموتى وأخرج جثمان حبيبته، حينها فكر إسماعيل أن يخرج ويواجههما لكنه لم يفعل، تماسك وانتظر، اقترب خالد من رأس جميلة ثم أمسك بجبينها وبدأ التمتمة وبعد لحظات نطقت جملية:

- قُتلت غدرًا، أريد الثأر.. أريد القصاص.

تحدث خالد كالعادة:

- نعلم كل ما حدث، لكننا لا نعلم هوية من قتلك، نريد المعلومات.

هنا ترك خالد جسد جميلة وتراجع، اعتدلت ووقفت على قدمها ثم مدت يدها إلى الأمام وفتحت عينيها، كان المشهد مفزعًا، تساقطت دموع إسماعيل وهو يرى زوجته تعود إلى الحياة، لكنها ميتة بكل تأكيد، هَمَّ أن يُظهر نفسه لكنه تراجع عندما وجد جميلة تهتز

وتتحرك، نظر له صالح في تعجب وقبل أن يسأله قال:

- أستطيع الآن أن أفعل أمورًا أكثر مما تتخيلها، بعد قراءة كتاب وصلني دون علمي، تمكنت الآن من استنطاق الموتى، وأن أجعلها قادرة على الكتابة والرسم، وأن ترِني كل ما حدث وكأنني كنت حاضرًا.

لم يتفوه صالح بكلمة، بينما اقترب خالد منها ثم قال:

- أريد أن أرى ما حدث، هل تقبلين؟ أريد أن يرشدني قرينك.

قالت بهدوء:

- نعم، لكن طلب مقابل طلب، هل توافق.

قال مسرعًا:

- أوافق.

أمسكت بيده فجاة فارتجف جسده وهو يرى كيانًا يخرج من جسد جميلة ويقف أمامه، ثم أخذ بالتحول حتى أصبح نسخة طبق الأصل منها، اقترب منه فأغمض خالد عينيه، رأى كل ما حدث؛ كيف قُتلت، وشكل من قتلها، شعر بألمها وخوفها، تلقى الطعنات وكأنها تُسدد إليه، ثم ذُبح بنفس النصل، لكنه لم يتمكن من رؤية وجهه بسبب ذلك القناع الأسود، طلب خالد من ذلك القرين أن يرى عنوان القاتل، وبالفعل رأى ما ينتظر.. سقطت قطرات من الدماء من أنفه، لكنه تماسك وهو يُخرج منديلًا وينظر إلى ذلك القرين الذي تلاشى داخل جسد جميلة التي قالت:

- والآن طلبي

- وأنا جاهز.

- زوجي، أريد إرسال رسالة له، أخبره أنني أسامحه، لم يكن له ذنب، ولم يكن بيده شيء لفعله، أريده أن يتجاوز الأمر، أن يحب من جديد، وأن يعيش حياة سعيدة، أن يتزوج وينجب، وأن يقوم بدفني ولا يقطع زيارته أبدًا، هل ستخبره؟

شعر خالد بأنه يفقد الاتزان، لكنه أجاب:

- نعم سأخبره.

صمتت قليلًا ثم قالت:

- جيد.

وضع يده من جديد على رأسها وأخذ يتمتم ببعض الكلمات حتى رحلت، همد جسدها وعاد كل شيء إلى طبيعته، كتب عنوان القاتل وأعطى الورقة لصالح ثم غادرا سريعًا، ظل إسماعيل واقفًا خلف الخزانة يضع يده على فمه ويبكي وهو ينظر إلى جثمان زوجته.

خرج صالح برفقة خالد من المشرحة وتبعهم إسماعيل، وقبل أن يتحركا بالسيارة تفاجآ به أمامهما يمنعهما من التحرك، وقف صالح أمام إسماعيل وقبل أن يتكلم:

- أنا كنت هناك، بالداخل، شاهدت كل شيء، وسمعت كل ما قالته، أعلم أن لديك عنوانه الآن، أرجوك، خذني معك، سأكتفي بالتواجد ولن أعيقك، لكن لا تتركني لشيطاني، صالح، أرجوك.

لم يتفوه صالح بكلمة، اكتفى بالإشارة إليه بالموافقة، فاقترب منه واحتضنه، ظلا هكذا لعدة دقائق قبل أن يرحلا سريعًا.

لقد وثقت بك، لمَ فعلت هذا؟ أنت من أخبرت صالح بقدومي لقتل حبيبته المدللة، ألست كذلك؟ أنا أتالم من موضع الرصاصة، وأتالم أكتر من خيانتك لي، سحقًا، فأنا لا أتعلم أبدًا، حسنًا، الآن أنت لا حيلة لك، اجلس وشاهد ما سوف أفعله، لا مزيد من التكهنات، ولا مجال للتراجع الآن.

(9)

بعد ساعات قليلة كان صالح يقود حملة كبيرة مكونة من العديد من سيارات الشرطة وقوات الاقتحام للقبض على القاتل، أعدوا الخطة المناسبة للاقتحام، حضر إسماعيل كل شيء بموافقة العميد عادل الذي تساءل عن مصدر المعلومات، وكانت الإجابة غير كافية ولا مُرضية له، لكنه وافق على كل حال لضيق الوقت، وصلوا إلى العنوان، اندفع رجال الشرطة إلى العقار واحدًا تلو الآخر بسرعة ومن دون إحداث جلبة كبيرة، صعدوا إلى الطابق الثامن واقتحموا المنزل.

انتظر صالح الإشارة التي أتته سريعًا من أحد الضباط.

- إنه العنوان الصحيح، محتويات الشقة تؤكد ذلك، لكننا لم نعثر عليه، أكرر، لم نعثر عليه.

شعر صالح بخيبة أمل، لكنه فضَّل أن يصعد وينظر إلى محتويات الشقة برفقة إسماعيل، وقف الضابطان أمام الحائط الكبير الذي كان يحوي الصور الخاصة بالضحايا، وجدا صورًا تحمل علامات إكس لكل من رحل، ثم صور باقي الضحايا، وكان من ضمنها صورة لأم صالح، وله، وللرائد إسماعيل، تمكن رجال البحث الجنائي من الحصول على بصمات كثيرة، وأخيرًا تمكنوا من تحديد هويته، وما هي إلا ساعات وسيمسكون به.

وسط كل تلك الجلبة، ومن بين الجيران المحيطين بمنزل القاتل، كان هناك رجل ضخم الجسد يقف وينظر إلى كل ما يحدث، ظهرت عليه معالم الغضب والخوف، وضع غطاء الرأس وتحرك مبتعدًا وهو

يعرج ويستند إلى عكاز.

***

جلست داخل غرفتها تنظر إلى شاشة هاتفها وتقرأ الرسائل التي كان يرسلها إليها كل يوم، لكنه توقف منذ أن ترك لها دبلته وقرر الانفصال والابتعاد خوفًا عليها، منعتها والدتها من الاتصال ووافقها أبوها على ذلك القرار، أخبراها أنها ستتألم، لكن أن تتألم أفضل من أن تفقد حياتها مستقبلًا، جلست تبكي، لم تشعر سوى بالفقد، إنها خذلته عندما تركته وحده في أول موقف صعب، ألقت كل ما قيل لها واتصلت به، لكنه لم يجِب، حاولت مرارًا وتكرارًا من دون فائدة، يبدو أنه اتخذ قراره وعليها أن تجتاز الأمور وحدها كما فعل.

***

ظهرت معالم القلق على وجهه وهو ينظر إلى انعكاس صورة من يركب في الكراسي الخلفية من السيارة، شعر أن هناك أمرًا خاطئًا فقال:

- أنا لا أرى أي تجمع سكني على مرمى بصري، إلى أين نحن ذاهبان، نحن تركنا الطريق السريع منذ نصف ساعة.

لم يجِبه وظل صامتًا ينظر من الشباك، توقف سائق التاكسي بالسيارة ونظر إلى الخلف:

- هل تسمعني، إلى أين نحن ذاهبان يا أستاذ؟ أجِبني، أو يمكنك أن تكمل سيرًا.

ابتسم له الرجل وقال:

- لا تقلق، لقد وصلنا.

قال كلماته وفتح باب التاكسي وهبط وتحرك بصعوبة وهو يستند إلى عكازه، تبعه سائق التاكسي وهو ينادي عليه:

- يا أستاذ، الأجرة، الأجرة؛ أنت لم تحاسبني.

توقف الرجل ووضع يده في جيبه، ثم فجأة التفت مسرعًا موجهًا طعنة بسكينه لرقبة السائق الذي وقع أرضًا يصارع الموت، أخذ يزحف نحو سيارته، تبعه القاتل وأمسك به ثم قام بذبحه، ارتدى قناعه وأخرج «كاميرا» وصوَّر نفسه برفقة السائق وكتب خلف الصورة:

«لن تستطيع الإمساك بي ما حييت.. إنه ديْن ويجب دفعه».

***

طرق الباب ودخل من خلفه الأمين أشرف، أدى التحية العسكرية إلى الضابطين.

- الضابط صفوت حسان.

نظر له صالح:

- يمكنه الدخول بالطبع.

خرج الأمين أشرف ودخل من خلفه ضابط برتبة ملازم يحمل بيده ملفًا أصفر اللون، سلم على الضابطين فأشار له صالح أن يجلس

وطلب له فنجان قهوة، أعطى الملف إلى صالح الذي قال:

- هل توصلت إلى شيء يا صفوت بعد أن تفحصت كل الأوراق.

ابتسم صفوت قائلًا:

- نعم، بعد أن راجعت كل قيد عائلي على حدة، وجدت شخصًا يمكنه أن يكون القاتل.

لمعت عين الرائد إسماعيل فأكمل صفوت:

- اسمه (يسري قاسم)، خمسة وأربعون عامًا، لقد تسبب أبوك في سجن أبيه وإعدامه بعد أن كشف فساده، تشرد عندما كان في مقتبل عمره بعد أن صادرت الدولة كل ممتلكات أبيه ولم يساعده أحد من أقاربه، وتبرأوا منه، هو المشتبه به الوحيد والذي تنطبق عليه المواصفات، حتى تلك الصورة المرسومة بخط اليد تشبهه إلى حد كبير.

أمسك صالح بالملف وقارن بين صورة يسري والصورة المرسومة، فوجد تطابقًا، ابتسم وقال:

- لم يتبقَّ سوى أن تتطابق البصمات التي وجدت في الشقة مع بصماته.. أشكرك يا صفوت على مجهودك، لك دَين في رقبتي.

ابتسم صفوت ثم أنهى فنجان قهوته ووقف:

- أتمنى لك التوفيق والسلامة يا صديقى العزيز.

أنهى كلماته وغادر المكتب وترك الضابطين في حالة جيدة لأول

مرة منذ فترة طويلة.

عليك أن تعلم أنك المتسبب في كل تلك الجرائم، ذنب السائق ودماؤه على كفيك الآن مثلي تمامًا، لو أنك التزمت الصمت كما طلبت منك، لو أنك علمت حقيقة الأمر وأعطيتني فرصة، لكنني ومع كل ما فعلت بي لا زلت لا أكرهك، أنا فقط أروي لك ما يحدث، إننى وحيد للغاية، لذلك كنت أستأنس بك.

(10)

قبل أن يحل الليل أمر صالح بنشر مواصفات يسري أمين وشكله في الإعلام والكمائن والأقسام وكل مكان، مسألة القبض عليه أصبحت قاب قوسين أو أدنى ولن يطول الأمر حتى يتمكن أحد الضباط من القبض عليه، أو أحد المواطنين من الإبلاغ عنه، وبينما كان صوت الأمل يرتفع، كان الشيطان يعد لضربته القاضية.

***

انتهى من كتابة الكلمات غريبة الشكل على الحائط، وأحضر الشموع والبخور المناسب لإتمام فتح البوابة، رسم نجمة سداسية على الأرض وجلس بداخلها، وقبل أن ينطق بالكلمات سمع صوتًا قادمًا من جانبه، التفت ليجد شيخه بتلك الابتسامة التي لم تعد محببة:

- خالد، أنا أحذرك للمرة الأخيرة، لا تفعل، أنت على وشك ارتكاب خطأ كبير لا يُغتفر، أنت تتدخل في عالم الجان والشياطين، من ستستدعيه لن يمكنك ترويضه أبدًا، فارجع عما تنوي عليه.. تذكر أنك تحتاج لي كما أنا أحتاج إليك.

وقف خالد واتجه إلى شيخه الذي لم يعد يعرفه وقال:

- أشعر دائمًا أنك لا تريد مني التطور والترقي، تعلم أن لدي الكثير من القدرات ما يفوق استنتطاق الموتى، تعطيني القليل وأريد أنا المزيد، أعتقد أنك تخاف أن أتخطى قدراتك وأصبح أعلى شأنًا منك،

سأستدعيه، وسأتمكن من استخدامه كيفما أشاء، أريد أن أخبرك بما توصلت إليه، أعتقد أنك لا تستطيع إيذائي لأنني أقوى منك بكثير، وفِر نصائحك.

اختفت بسمة الشيخ وقال بجدية:

- لا تكن مختالًا بنفسك لتلك الدرجة يا إنسي، ما أنت سوى طين نتن.

تعجب (خالد) من قول شيخه الذي تدارك الأمر ورسم ابتسامة كانت زائفة تلك المرة وقال:

- لا تنس أننى خلقت من النار، سريع الغضب وأنت أغضبتني بشدة، اسمعني جيدًا، نحن يمكننا أن ندخل عالمكم كيفما نشاء، ونعبث به كما يحلو لنا، أما أنتم فلا، إنه أمر منتهٍ.

اقترب خالد من الشيخ ووقف وجهًا إلى وجه:

- أراك تتحدث مثل الشياطين، أنت أخبرتني أن الشياطين أعداؤك، وأننى أمتلك قدرات فائقة، لقد علمتني وأعطيتني العلم، لماذا الآن تريد مني أن أكتفي؟

لمعت عين الشيخ بضوء أحمر يتعالى:

- يبدو أنني كنت مخطئًا عندما اخترتك في الماضي، هناك أنت بلا قدرات، إن عبرت تلك البوابة لن يكون هناك مجال للتراجع، هذه آخر فرصة لك، السجل الأحمر به لعنات ستجلبها على نفسك لا علومًا تستفيد بها.

قالها وتوارى عن ناظره واختفى تمامًا، تركه حائرًا ما بين أن يتبع عقله ويستمع إلى كلام شيخه الذي لم يخالف كلامه قط طوال أعوام، لكنه تم خداعه، لذلك فقد الثقة به أو أن يتبع قلبه الذي يحثه على المضي قدمًا، فكر لحظات ثم اتَّخذ قراره.

أحضر كيسًا من الملح كبير الحجم، جلس أرضًا يتمتم وهو مغمض العينين وسط نجمة سداسية، وبعد لحظات تقدم شخص ما يشبه خالد تمامًا وقف مواجهًا له، فطلب خالد أن يذهب لعنوان القاتل ويرى كل شيء بنفسه بناءً على زيارته للمكان من قبل، فهز قرينه رأسه بالموافقة.

أغمض عينيه وأخذ يتمتم بكلمات فوجد نفسه داخل حجرة بها حائط معلق عليه صور كثيرة للضحايا، اقترب منها، وفجأة سمع صوتًا قادمًا من خلفه، التفت ليجد القاتل يضع القناع الأسود على المكتب وهو يبتسم، ثم خرج وهو يعرج بسبب إصابة برجله، جلس خالد على المكتب وأخرج ملفًا وأخذ يقرأ ما به.. حينها سمع صوت صراخ لحيوان ما يقترب من الغرفة، علم أن أحد الشياطين اكتشف وجوده بعالمهم، انتظر لحظات وهو يلقي نظرة أخيره على الأوراق محاولًا جمع أية معلومات، اقترب الصوت هذه المرة منه فرأى شيئًا مفزعًا، لقد عاد القاتل، ولكن لديه رأسين وأربعة أذرع وأربعة أقدام أشبه بالعنكبوت، تمتم خالد بكلمات وهو يعلم كيفية خروجه من هذا العالم... لحظات وفتح عينيه فوجد نفسه داخل غرفته، اعتدل سريعًا وأمسك كيس الملح وأخذ يرش في كل مكان حول منزله.

عاد إلى عالمه وهو لم يفهم حقيقة ما رآه، لكنه أخذ يفكر في ذلك

الشيطان، وعلم أنه الآن خرج عن طوع شيخه، وأنه وحيد تمامًا.. حاول أن يتذكر جاهدًا شكل القاتل والصور الخاصة بالضحايا، ومن ثم قرر ما عليه فعله.

***

دفع الكثير من المال مقابل أن يحصل على غرفة صغيرة فوق ذلك العقار من دون أن يعطي المستأجر إثباتًا للشخصية، ما زالت قدمه تؤلمه، لكن أكثر ما يؤلمه حقًا هو فشله في قتل لمى عندما أتيحت له الفرصة، لذلك اختار ذلك المكان على بعد عدة عقارات من منزل صالح.

سيمكث هنا لبعض الوقت حتى تهدأ الأمور، فالجميع يبحثون عنه في كل مكان بعد أن اكتشفوا أمره أخيرًا، سينتظر الوقت المناسب لتسديد ضربته القادمة، أخرج «كاميرا» مراقبة ونظر من خلالها في اتجاه العقار المنشود، فوجد أم صالح تجلس داخل شرفتها تنظر إلى المارة وهي تشرب كوبًا من الشاي، اتسعت بسمته، ويبدو أنه حدد هدفه القادم.

***

طُرق الباب وفتح ليدخل الأمين أشرف، يؤدي التحية:

- الآنسة لمى تريد مقابلتك.

ما إن سمع اسمها حتى انتفض قلبه، نظر إلى الرائد إسماعيل فأشار له أن يفعل، وقف وأمسك سلاحه الناري واتجه إلى الخارج:

- لا تكن غبيًا مثلي، لن تمنحك الأيام حبيبة أخرى صدقني.

خرج وبعد لحظات دخلت لمى بعين دامعة ووجه شاحب، تأثر كثيرًا عندما رأى علامات التعب جلية على قسمات وجهها، لم يتحدث، لم يكن لديه ما يقول، جلست وهي تنظر إليه بترقب وخوف.

- أنا آسفة، تركتك وحيدًا، كنت خائفة يا صالح، لقد أراد قتلي، أنا لا أحمِّلك الذنب، أرجوك أن تسامحني، أن تسامح أمي وأبي، أنا ابنتهما الوحيدة وكان عليهما حمايتي.

رفع نظره إليها قائلًا:

- لمى، أنا لم أبتعد عنك بسبب ما فعله أبواك، بل لأنني أخاف عليك، ليس من ذلك القاتل، بل من ما هو قادم، لقد رأيت ما يحدث عندما يفقد أحدد شخصًا عزيزًا، وأنا لا أريد أن أفقدك، لا أريد أن أتسبب لك بأذى، لن أسامح نفسي إذا أصابك مكروه، لن تكون هذه آخر قضية أعمل عليها، إنها حياتي، وسأكمل رسالتي مهما كلفني الأمر.

ابتسمت ومدت يدها إليه فأمسكها وشعر برعشة اشتاق إليها:

- وأنا أوافق أن أكمل معك حياتك، أرجوك، لا تخلعها من إصبعك مجددًا.

أنهت كلماتها وهي تضع الدبلة حول أحد أصابعه وتبتسم، قبَّل يدها واحتضنها بقوة ثم نظر إليها وقال:

- كنت أخشى ألا أراكِ مجددًا.

تشبثت به قائلة مبتسمة:

- ستراني كل يوم، حتى آخر يوم لي على قيد الحياة.

***

لم تكف السماء عن البكاء فوق رؤوس المشيِّعين، مرتدي السواد، حمل نعش زوجته وشارك السماء بكاءها، نظر إلى الطرف الآخر حيث كان صالح يحمل النعش برفقته، يتقدمون مسيرة كبيرة في اتجاه مقابر العائلة، كان يتمتم باسمها كلما خطا خطوة في اتجاه القبر، تمنى لو أنه مكانها وهي ما زالت على قيد الحياة، تذكر كل ما مر به معها في لحظات، لحظة أن تعرف عليها، عندما تقدم لها وطلب يدها، زفافهما وسعادتهما، حضنها الدافئ وابتسامتها الصافية، قلبها النقي ونظراتها الساحرة، انتحب وكاد أن يتعثر، لكنه تماسك حتى وصل إلى الحوش.

ساعده اصدقاؤه في إنزال النعش على الأرض، حملها كما أرادت وهبط بها إلى باطن القبر، تمنى لو أنه فارق الحياة قبل تلك اللحظات، تمنى لو أن يغلقوا عليه القبر معها كما أغلقوا عليهما بابًا من قبل، هم نفس الأشخاص؛ من كان يضحك يبكي الآن، ومن كان مباركًا أمس معزيًا له، هبط صالح وأمسك به وأخرجه من القبر عندما ظل بالداخل لدقائق، أغلقوا عليها القبر وأغلق هو قلبه لبقية حياته.

كمن شلب عقله وقف يسلم على الراحلين، وقف على يمينه العميد عادل وعلى يساره صالح والدكتور نادر، ظلوا برفقته لساعة، ثم اصطحبوه إلى منزله، إلى قبره الدائم حتى آخر أنفاسه، إلى سجنه

الذي سيظل به حتى تتحرر روحه وتذهب إلى حبيبته.

***

انتهى الطبيب الشرعي نادر من تشريح جثة سائق التاكسي الذي وُجد داخل سيارته بالقرب من إحدى الطرق الصحراوية، ذُبح بنصل حاد وفُقأت عيناه وهناك عدد من الطعنات في منتصف الصدر، نفس أداة الجريمة ونفس ملابساتها مع وجود صورة جيدة تحمل تهديدًا آخر، لكن ما أثار انتباهه هو وجود بصمات واضحه من الدماء على صدر السائق، يبدو أن القاتل قام بطعنه ثم بطريقة أو بأخرى غُمست يده في الدماء بدون شعور فطبعت بصماته بوضوح على ملابس وصدر الضحية، استدعى أحد رجال البحث الجنائي وجعله يطلع على البصمات ويأخذ منها عينة ثم قرر أن يتحدث الى صالح.

اتجه إلى غرفة مكتبه، ولكنه قبل أن يصل قطعت الإضاءة عن المشرحة بالكامل، وقبل أن تعود أمسك به أحدهم وخدَّره، وبعد دقائق كان العامل قد وصل إلى مناوبته، بحث عن الطبيب، لكنه لم يعثر عليه في مكتبه، اتجه إلى الرواق المؤدي إلى غرفة التشريح ليجده ملقًى أرضًا على وجهه وحوله بقعة كبيرة من الدماء التي خرجت من رقبته التي نحرت تمامًا وبجانبها صورة تجمعه مع القاتل مكتوب على ظهرها:

«لقد أزعجني بشدة وكان عليَّ قتله».

بعد أن تم تشريح جثة الدكتور نارد، قال الطبيب الشرعي الجديد في تقريره ما يفيد أن نادر تعرض للتخدير قبل أن يُذبح.

أتعلم؟ أنا جلست مع نفسي وفكرت وتوصلت لشيء ما، أنت لست خائنًا، أنت صديق وفيّ، أشكرك من صميم قلبي، لقد استمعت إليّ بحرص، تحملت عصبيتي المفرطة، وتحملت كلماتي الجارحة، اتهمتك بالكثير، لكنني أتراجع عما قلته سابقًا، أشكرك مجددًا، أشعر أن هذا آخر لقاء سيجمعنا، أتعلم؟ يمكنك الرحيل الآن إذا أردت، أو يمكنني أنا أن أنهي الأمور، وقبل أن نفترق، أريدك أن تعلم أنني تلاعبت بك حتى تلك اللحظة، وكنت خير عونٍ لي. تذكَّر.. أنت لست سوى بيدق على رقعة الشطرنج الخاص بي.

(11)

يوم جيد بلا فائدة قضاه الضابطان في التحقيق مع أهل المجني عليه سائق التاكسي، لم يتمكن أحد من معرفة ما أصابه فقد أغلق هاتفه الجوال ولم يتم فتحه مرة أخرى وبعد بلاغ قدمه ابنه الأكبر وجدوا جثمانه داخل سيارته بعد عدة أيام، أشعل الرائد إسماعيل لفافة تبغ وأعطى واحدة أخرى لصالح الذي وقف ينظر من شرفة المكتب.

- لقد كان يقف أسفل المبنى وينظر إليّ بتحدٍ، يتمتع بذكاء خارق وشجاعة أحسده عليها، لكننا سنوقع به.

أخذ إسماعيل نفسًا عميقًا ملأ به صدره:

- ليس شجاعة بل غدرًا، الشجاع لا يلجأ إلى قتل الأطفال والسيدات العزل.

نظر صالح إليه قائلًا:

- معك كل الحق.

أصدر هاتفه الجوال صوت رنين فأمسك وأجاب، استمع إلى ما يقال إليه ثم ابتسم وقال:

- أخبار سارة، لقد تم الإمساك بيسري قاسم وهو يحاول الهروب على متن مركب للهجرة غير الشرعية، هو في طريقه الآن إلينا.

بعد ساعتين وقف يسري قاسم مقيد اليدين داخل مكتب

التحقيقات، ينظر إليه الرائد إسماعيل بغل، يريد أن يلكم وجهه البائس وأن يقتلع عينيه الباردتين، نظر صالح إليه وقال:

- إذا كنت بريئًا من كل تلك الجرائم، لمَ سعيت للهرب، لمَ لم تسلم نفسك؟

أجابه يسري:

- نصف البلد كانت تبحث عني في كل مكان، الجميع صدق أننى القاتل، لم يكن لديّ حل آخر غير الفرار، أنا لم أفعل شيئًا، فقط لسوء حظي أن المواصفات التي لديكم تشبه ملامحي بشكل كبير.

ارتفع صوت الرائد إسماعيل:

- إنكارك لن يفيد بعد أن يتم الانتهاء من مطابقة تحليل السائل المنوى الخاص بك بذلك الذي وجد رفقة إحدى الضحايا، النتيجة ستكون هنا خلال دقائق وبعدها سنطابق بصماتك بالبصمات الت وجدت على ملابس سائق التاكسي وبعدها سيلتف حول رقبتك حبل المشنقة.

نظر له الرجل بغل وقال:

- لماذا تكرهني هكذا، أنا لست من تظنون، صدقوني.

بعد مضي ساعة تمت مطابقة تحليل السائل المنوي وكانت متطابقة تمامًا مع العينة الأولى، ولكن ما أربك الحسابات حقًا هو أن البصمات التي وجدت داخل الشقة ووجدت أيضًا على ملابس السائق لم تكن مطابقة لبصماته.

- هناك أمر ما خاطئ.

قالها صالح وهو ينظر إلى التقارير، فنظر إليه الرائد إسماعيل رادًا عليه:

- إنه شيطان، أعتقد أنه لن يصمد وسيعترف على شريكه صاحب السائل المنوي الثاني والبصمات، على كل حال جاء دور النيابة والقضاء ليقرروا مصيره، يجب عليك أن تبلغ العميد عادل.

تركه حائرًا وخرج من المكتب، صالح يعلم في قرارة نفسه أن هناك أمرًا ما خاطئًا، يجب أن تكون جميع الأدلة صحيحة، لكن أن تكون بعضها متطابقة والأخرى لا، هذا ليس صحيحًا.

***

بعد مضى أسبوع اجتمع صالح وأمه على الغداء مع عائلة لمى في فيلتهم، الأجواء مثالية للغاية للتحدث عن المستقبل بعد أن هدأت الأمور، أرادت أم صالح أن تعجِّل بالزواج قبل أن تقتحم حياتهم قضية أخرى أكثر تعقيدًا وسرقة للوقت، انتهوا من الطعام وأثناء شرب القهوة أشارت له أن يتحدث فقال:

- لديّ اقتراح وأريد أن أعرف رأيكم جميعًا به، وبالأخص أنتِ يا لمى.

انتبه الجميع إليه، ابتسمت لمى ويبدو أنها قرأت أفكاره فاستكمل كلامه:

- الآن وقد تمكنت من حل أول قضية لي، أتيت اليوم خصيصًا

حتى أقترح أن نتم الزواج بعد أسبوع من الآن، أعتقد أننا انتهينا من تجهيز شقة الزوجية بكل شيء ولم يتبقَّ سوى أن تنتقل لمى للعيش معي للأبد.

نظرت غادة إلى رشاد وقد بدا عليها الغضب، ثم ابتسمت فجأة وقالت:

- لأول مرة سأوافقك الرأي، ما قولك يا رشاد؟

ابتسم وقال:

- مبارك، ولكن الأهم رأي لمى.

اقتربت لمى وأمسكت بيد صالح:

- موافقة، موافقة يا حبيبي.

***

وقف أمام الحائط مترددًا، قال بنبرة واثقة:

- لتكن المرة الأخيرة يا خالد، تماسك وانظر بتمعن.

أحضر كيس الملح وجلس داخل نجمته السداسية، أخذ نفسًا واستدعى قرينه، وأخذ يمكِّنه من رؤية ما يوجد هناك.

الظلام يعم المكان، وهناك غرفة واحدة قادم منها الضوء، اقترب بحرص، فهو لا يريد مواجهة شيطان آخر، اقترب من الباب وفتحه بهدوء، غرفة ضيقة بها سرير وثلاجة وبوتوجاز ودورة مياه، هناك فوق الفراش وجد رجلًا ضخم الجسد يغط في نوم عميق، نعم، إنه

القاتل، قدمه مصابة وما زال يتألم منها حتى وقت نومه، ظل يمعن النظر إليه ثم سمع صوت باب دورة المياه يُفتح وإذا برجل يشبه من هو نائم تمامًا، أهو شيطان يتلاعب به، لا إنه مختلف، يتمتع ببنية أقوى ونظرات مختلفة عما رآها من قبل، يحمل جرحًا قديمًا بجانب عينه اليسرى، ركل النائم بقدمه وقال:

- نجحت الخطة أيها الغبي، ألم أخبرك؟ أمسكوا بيسري وسيعدم بدلًا منا، فكرة السائل المنوى أتت بثمارها، تأكد أن يصل المبلغ إلى صديقك الذي جلب لنا عينة يسري من معمل التحاليل وتأكد من أنه سيلتزم الصمت.

ضحك بتباهٍ وهو ينظر إلى أخيه مستكملًا:

- ستظل الشرطة تضغط عليه ليعترف على شريكه ولن يفيدهم بشيء، سيعدم

بدليل واحد فقط وهو تطابق السائل المنوي، أتعلم..؟ أنا لم أكن لأنجح بدونك، أعلم أنك غبي ولا فائدة منك، لكن تلك الملفات التي استطعت أخذ نسخة منها عندما كنت تعمل في البنك أفادتنا حقًا.. ظللنا أربع سنوات كاملة نحاول الأخذ بالثأر، نخطط لمقتله، وفي كل مرة كنا نفشل، لقد حالفنا الحظ هذه المرة، أو اختار القدر أن يكون بصفِّنا عندما اكتشفت أن ابن ذلك الصحفي أصبح ضابطًا الآن وحديث التخرج يفتقر إلى الخبرة ويمكننا التلاعب به كدميه الهاء لإسماعيل.

اعتدل من كان نائمًا بصعوبة من أثر الرصاصة، ونظر إلى أخيه وهو

يبتسم:

- أتساءل دومًا، كنا معًا في رحم واحد، ووُلدنا في نفس الوقت، لا يفرق بينا سوى ثوان، تقاسمنا الشكل والمصير، لماذا ذلك الاختلاف الكبير في العقلية وطريقة التفكير؟ حتى بهاء في الماضي كان يثق بك ويتخوف مني، أتذكر قبل أن يتم القبض عليه، أخبرك بمكان المال الذي ترفض أن تقرضني منه حفنة قليلة، لديَّ سؤل آخر، ما الذي أكد لك أن خطتك ستنجح؟

- هذا هو الفارق الكبير بيننا، أنت لا تتمتع بالثقة، تحب أن تكون تابعًا؛ أما أنا فلا، أنا لا أترك زمام الأمور، عندما كنا أطفالًا كنت أقوم بحمايتك رغم ضخامة جسدك، كنت أقوم بمساعدتك في مشاكلك، ولم أطلب منك شيئًا في المقابل، كنت أتكفل بأموري جيدًا، عندما أحضرت تلك الملفات قرأتها بتمعن وأجريت بحثًا مطولًا عما بداخله، استغرق مني عامًا كاملًا، ثم ظهرت الأمور جليَّة، لقد كان لدى ذلك الصحفي ولد في آخر عام من كلية الشرطة وأمامه شهور للتخرج، إنها فرصة جيدة يجب اقتناصها، رأيت أن ننتظر تخرجه ثم نبدأ أولى الخطوات، جريمة قتل دامية معقدة وبالطبع سيتحتم على القيادات إرسال أفضل من لديهم، الرائد إسماعيل، انتظرت وأنا في غاية القلق، لكن وقف بجانبًا القدر مرة أخرى، لقد ابتلعوا الطعم وأرسلوا إسماعيل.

قاطعة أخوه متسائلًا:

- وما الذي كان سيحدث لو لم يرسلوا إسماعيل.

ابتسم ذلك الضخم صاحب جرح الوجه وجلس وهو يقول بثقة:

- كنت سأقتل من جديد وأترك رسالة مثل التي تركتها أطلب فيها تولي إسماعيل التحقيق مع صالح، ثم نكمل ما فعلناه، وأطلب صالح وحيدًا، أنا فكرت فى كل شيء، وضعت كل الاحتمالات، أنا بارع في المناورات منذ الصغر وأحببت تسميتها دائمًا، أسمي تلك المناورة باسمي؛ مناورة ثابت صبري، والآن علينا أن نتحرك، ما زال لدينا عمل وثأر لم ننته منه بعد.. إسماعيل الريس ما زال على قيد الحياة، واليوم يا (ثروت) سنسترجع حق أخونا بهاء الذي ألقى به إسماعيل في السجن حتى قتل بالداخل، هيا، لقد حان الوقت، وما يشفي غليلي حقًا هو أن أذيقه مر الفقدان كما فعل معنا في السابق، كان عليّ أن أجعله يعاني قبل ذبحه.

أخذ نفسًا وأشار لتوأمه مستكملًا كلامه بجديه وفخر:

- والآن الخطوة الأخيره، ثأر أخينا، قتل إسماعيل وإعدام يسري لعدم الاستدلال على شريكه وتقفل القضيه تمامًا.

سمع خالد كل ما قيل عن طريق قرينه، بدأ يتمتم كلماته ليعود إلى عالمه، أفاق وهو لم يصدق ما سمعه قائلًا:

- القاتل، اثنان وليس واحدًا، إسماعيل هو الهدف منذ البداية! عليّ أن أخبر صالح.

***

أمام باب المقابر تحرك إسماعيل في طريق الخروج من الحوش

بعد زيارة زوجته التي مكث برفقتها حتى وقت الغروب، تركها بعين دامعه وخرج متأثرًا وهو يتوجه إلى سيارته، نظر إلى رجل ضخم الجسد يتقدم نحوه، لكنه لم يعره انتباها وفجأة وجده يعدو نحوه بسرعة وبيده سكين متحاملًا على قدم مصابة بالعرج، وعلى الطرف الآخر شبيه له قادم هو الآخر بيده سكين، توقف الزمن وتوقف عقله عن العمل، قبل أن يصل القاتلان إلى إسماعيل أطاح خالد بأحدهما بسيارته، وهبط مسرعًا منها، بينما هبط صالح من السيارة وأمسك بالآخر وأخذ يسدد له اللكمات حتى فقد الوعي، واتجه إسماعيل إلى الآخر الذي استسلم وظل ملتصقًا بالأرض متألمًا من أثر ارتطامه بالسيارة، بعد نصف ساعة أتت قوة من الشرطة وتم إلقاء القبض على التوأم لكنهما لم يعثروا على خالد الذي غادر قبل أن يلاحظ وجوده أحد من أفراد الشرطة بعد أن أشار له صالح بالموافقة.

***

بعد التحقيق تبين أن من قام بكل جرائم القتل هما أخوان توأم لتاجر مخدرات أطاح به إسماعيل منذ أربع سنوات، كان يدعى بهاء صبري، وبعد فترة وجيزة من سجنه تم قتله على يد أحد السجناء الذى وُجد مقتولًا هو الآخر داخل زنزانته بعد سنة، لكن الأخوين ظلا يحمّلان إسماعيل ذنب موت أخيهم وضياع ثروتهم وسلطتهم فقرروا أن يثأروا له، أخذا يعدان العدة لذلك، وبالصدفة البحتة قرأ أحدهما تلك الملفات التي كانت تعود للكاتب الصحفي طارق محمود داخل البنك عندما كان يعمل أمينًا للخزينة، لكنه كان يعبث بممتلكات العملاء وفُصل جراء ذلك، كوّنَا خطتهما التي سردا كل

تفاصيلها بالتحقيقات، وكان الغرض من كل ذلك هو الانتقام من إسماعيل، ولكن بعد عملية إلهاء متقنة، كان عليهما اختيار ضحاياهما عشوائيًا حتى لا يكون هناك رابط مشترك، وحتى لا يتمكن أحد من أفراد الشرطة توقع تحركاتهم، تلك الجرائم المتباينة أعطتهما فرصة للمباغتة، ومكنتهما من الانتقام من إسماعيل قبل قتله عن طريق قتل زوجته جميلة في الوقت المناسب، كادا أن ينجحا بقتل إسماعيل لولا أن ظهر صالح وتمكّن من معرفة الحقيقة بعد أن توقع مراقبة القاتل لإسماعيل فقد كان لديه حِدس يخبره أن هناك احتمالًا ضئيلًا وهو أن يكون إسماعيل هو الهدف الأساسي منذ البداية، وأخذ يفكر فيما حدث ويراجع ملفات القضايا، لقد قام القاتل بقتل الطفل كريم الذي يعالج عند زوجته جميلة، ثم قتلها بعد أيام قليلة وهذا كان مختلفًا عن طريقة القاتل في اختيار ضحاياه، ففي تلك الحالة فقط كان هناك ترابط بين الجريمتين والضحيتين، بينما بقية ضحاياه لم يكن بينهم أي رابط، لقد كان احتمالًا ضعيفًا، لكنه وارد، لذلك أخذ المجازفة وتتبع هذا الاحتمال والحدس ونجح في نهاية الأمر، واكتشف أنه لا توجد جريمة كاملة في نهاية المطاف، لم يكن كلامه يحمل الكثير من التفاصيل، لكنه كان كافيًا لغلق القضية، وخاصة بعد اعتراف التوأم بارتكاب الجرائم.

***

بعد مرور شهر وقفت مستندة إليه بجسد أصابه الوهن وهى تنظر إليهما بملابسهما الحمراء كلون دموعها طوال تلك المدة البائدة على فقدان ابنها الوحيد، انتظرت كثيرًا حتى تحصل على انتقامها، نظر

إليها مواسيًا وسألها:

- هل أوفيت بوعدي لك؟

نظرت له وهي ممتنه:

- نعم أوفيت، الآن كريم يمكنه أن يستريح، يمكنه أن يكف عن الصراخ داخل صدري فى كل ليلة طالبًا القصاص، الآن تموت أحزاني مع موتهما.

أشاحت بنظرها إلى الرجلين وهم مكبلَي اليدين يتم جرهما نحو حبل المشنقة بكل غلظة وحسم كما كانا يفعلان بضحاياهما، والآن قُلبت الآية، أحدهما كان يعرج من أثر الرصاصة في قدمه ينظر إلى صالح بغِل وهو يتفوه ببعض الكلمات، يبدو عليه الخوف مما هو مقبل عليه، بينما الآخر توأمه الأكثر صلابة، لم يهتز له جفن، ولم تطرف له عين، مر بجانب الأم ونظر وهو يرسم ابتسامة مؤلمة، ثم عندما وقعت عيناه على وجه صالح أخذ يضحك بصوت مرتفع وينعته بصفات «الغباء – الجبان – سيئ الحظ»، ضحكات قادمة من قلب أسود قاتم لم يرَ النور قط، نظر له أخوه وقد أصابه الفزع.

- نحن سنعدم الآن، لماذا تضحك؟ أنت مريض حقًا، كان من الخطأ أن أتبعك، أن أتبع شيطانًا مثلك، سأعدم بسببك، لقد عانيت في الحياة بسببك، والآن أموت بسببك أيضًا، أنا أكرهك.

التفت إلى أخيه وقال بحزم:

- صدقت، لم يكن عليك اتباعي، لكنك لو لم تفعل لكنت قتلتك

قبلهم جميعًا، أنت أداة خلقت كي أستخدمك وأتلاعب بك مثلهم جميعًا، لم تكن يومًا أخًا لي، أنت أجبن وأغبى وأضعف بكثير من أن تكون توأمي، لذلك تعاملت معك على أنك ظلي، شبيه لي ينفذ ما أطلبه..أنت نكرة.

استشاط غضبًا وحاول أن يهاجمه لولا أن الحراس أبعدوهما عن بعضهما، اقتادهما رجال الأمن إلى أعلى حيث تنفيذ حكم الإعدام، ألبسوهما غطاء للرأس أسود اللون، ثم لفوا حبال المشنقة الغليظة حول رقبة كل واحد منهما، أحدهما يبكي وينتحب ويلعن حظه، والآخر يعلو صوته بالضحكات ويسب الجميع، أصواتهما كانت مزعجة وكافية ليكوّنا سيمفونية مخيفة ومؤلمة، أحكموا قيودهما، ثم سحب منفذ الحكم المقبض لتتحطم أعناقهما ويجبر قلب الأم، لوهلة اهتز جسد صالح، اهتز قلبه لصمتهما بعد أن كان أحدهما يبكي والآخر يضحك، والآن هما سيان، خارج هذا العالم وكأنهما لم يخلقا قط، رحلا كما يرحل الجميع، أحدثا فوضى وتسببا في كثير من الألم وسفكا الدماء، والآن تهدر دمائهما وتعود الحقوق إلى أهلها، التفتت إليه وابتسمت أخيرًا، ربتت على يده:

- أعانك الله على رسالتك.

تركته وأكملت سيرها إلى الخارج برفقة أحد أقاربها، بينما ظل هو واقفًا أمام الجثامين المتدلية من حبل المشنقة، يراهما يتأرجحان يمينًا ويسارًا كدُمى معلقة.

انتهت القضية التي علمته الكثير، أعطته الكثير، وأخذت منه

الكثير، تركت به أثرًا لن يُمحى وألما لن يُنسى.

***

أُقيم الزفاف في منزل عائلة لمى ومن بين الحضور تقدم خالد ليصافح صالح ويخبره أن هناك جريمة معقده في طريقها إليه في وقت قريب، وأنه سيكون بالقرب منه إذا احتاج الأمر لذلك، نظر له صالح وسأله:

- أحقًا أنت مُنطقٌ للموتى أم مجرد شخص لديه معلومات؟

ابتسم خالد وقال:

- كل الاحتمالات واردة يا صديقي.

أنهى كلماته وقام باحتضانه وغادر مسرعًا فلديه مهمة إضافية.

***

نظر إلى الشمس وهي تغيب ثم ابتسم، وضع آخر صندوق خشبي داخل سيارته السوداء وأغلق الأبواب، أخذ جركنًا من الجاز وأخذ يغرق به بيته القديم، اتجه إلى الغرفة المنعزلة وأغرقها بالجاز، ثم تراجع إلى الخلف، أخرج قداحة ونظر إلى بيته الذي قضى فيه أعوامًا طويلة، ألقى بالقداحة وهي مشتعلة في وسط المنزل فارتفعت ألسنة اللهب تأكل كل شيء، انتشرت بسرعة كبيرة حتى وصلت إلى تلك الغرفة المنعزلة، أحرق كل شيء، أراد أن يبدأ حياة جديدة بعيدًا عن هنا، يعلم أنهم لن يتركوه بعد أن قتل فردًا جديدًا منهم وأصبح بلا حلفاء من عالمهم بعد أن تخلى عنه الشيخ، عليه

أن يستتر قدر المستطاع، وتلك كانت أول خطوة للهروب، سيطول البحث عنه، وسيعمل هو على استخدام ما في تلك الصناديق من كتب وأدوات من عالمهم في مواجهتم، سيكون مستعدًا عندما يحين الوقت.

وصلت النيران إلى النخيل حول المنزل، أصابه الحزن قليلًا فقد زرع كل واحدة منهم وأسماهم أسماء مختلفة، وتحدث إليهم كثيرًا، لكن عليه أن يمحي كل ما يتعلق به؛ فقريبًا سيرسلون الدلّالون خلفه لاقتفاء أي أثر له، اتجه إلى سيارته وأدار محركها، ثم انطلق بها وهو ينظر إلى النيران تأكل ما تبقى من إرثه الذي بناه لبِنة لبِنة وغرس نخيلها وعاش بها أكثر من نصف عمره.

بعد عدة أيام وصل بسيارته إلى أحد شواطئ البحر الأحمر في جنوب مصر، مكان مرتفع فوق تلة، منعزل يصلح لإقامة بيته الجديد بعيدًا عن أعين الدلّالين وأعوان الشيخ، بنى بيتًا جيدًا هذه المرة وحصنه جيدًا، رسم العشرات من الدوائر حول البيت ودفنها أسفل التراب حتى لا تتأثر بالرياح، معلومة قد قرأها في أحد الكتب التي سرقها من الشيخ الذي أخفى عنه علومًا كثيرة لسبب لا يعلمه حقًا، استخدمه في حربه ولم يعبأ حقًا به كما اعتقد، بعد فترة وجيزة أصبح جاهزًا متسلحًا بعلوم لم يكن يتخيل وجودها، جرب بعضها ونجح وما زال يعمل على أن يصبح ليس فقط (مُنطقًا للموتى) بل أيضًا «مسافرًا بين عالم الجن والإنس».

اصطبغ القمر بلون الدماء، وقف أعلى التلة أمام باب بيته ونظر إلى أسفل حيث آلاف المسوخ يهرولون إليه من كل مكان، أصواتهم

ترتفع بالصراخ، نظر خلفه إلى البحر فوجدهم يحيطون به من كل مكان أرضًا وبحرًا، شعر برهبة وأن نهايته قد اقتربت، ظن أنه جاهز لهذه الحرب التي سيخوضها وحيدًا، وقف أعوان الشيخ برفقة القبيلة التي تطلب بالثأر، تعجب، ظن أنهم أعداء، أفسحت الخطوط وظهر الشيخ بملابسه البيضاء، أراد خالد أن يتحدث معه لكنه أصدر صرخة مدوية وبدأت قسمات وجهه الجميلة تتحول إلى ملامح شيطانية مفزعة، تحولت ملابسه البيضاء إلى سوداء تتخللها الحمرة، نعتوه جميعًا بالسيد، نظر إلى أتباعه فوجدهم يرتدون نفس الملابس وبنفس الملامح، أصيب بالذهول، معلمه لم يكن سوى شيطان مريد، كذب عليه في كل شيء، رأى به قدرات وأراد استخدامها لفتح بوابات بين العوالم، وعندما خرج عن سيطرته يريد الآن التخلص منه، أشار ذلك المسخ في اتجاه خالد فاندفعوا نحوه وهم يصرخون، احترق بعضهم، لكن البقية تمكنوا من المرور، لم يعد ذلك الخليط من الملح يعيقهم، أحاطوا به من كل مكان، لكن لم يمسسه أحد، اقترب منه ذلك المسخ العملاق وقال:

- إما معنا، أو تموت.

وقف خالد ينظر إلى المسوخ من حوله، ثم رفع نظره إلى من كان معلمه:

- أختار الموت.. أستحقه بجدارة لغبائي.

أومأ ذلك المسخ بالموافقة، رفع يده المفزعة إلى أعلى، وقبل أن يهوي بمخالبه عليه سطع نور مرتفع للغاية جعلهم يتراجعون بخوف،

نور قادم من خنجر ما يمسكه رجل يخفي معالم وجه، نور لم يمكنهم مواجهته حتى كبيرهم، تقدم نحو خالد وأمسك به وسحبه إلى داخل المنزل، وقفوا أمام مرآة ثم دفع به في اتجاهها فابتلعته، اقتحموا المنزل، وقبل أن يصلوا إليه قفز داخل المرآة التي عادت إلى طبيعتها بعدما مر من خلالها، دخل ذلك المسخ العملاق المنزل وصرخ.

أفاق خالد ليجد نفسه ملقى أرضًا داخل حجرة ممتلئة بالكتب، اعتدل ليجد أمامه شابًا يصغره سنًا، أبيض البشرة، يتمتع بقدر من الوسامة، متناسق الجسد، أسود الشعر والعينين، يرتدي بالطو أسود، يجلس فوق كرسي وهو يقرأ داخل كتاب ما، تنبه وأغلق الكتاب فور رؤيته لخالد يعود إليه وعيه.

أشار إليه أن يجلس على كرسي قريب وأعطى له كوبًا من المياه فشربه دفعة واحدة، حاول أن يهدأ، لكنه لديه الكثير من الأسئلة وأحدها أعلن عن نفسه:

- كيف وصلنا إلى هنا؟ لقد كانت مرآة.

ابتسم الشاب وقال:

- لا تقلق.. سأعلمك.

نظر له خالد بتعجب محاولًا استيعاب ما قاله الشاب:

- ستعلمني!! أنت تصغرني سنًا على ما يبدو، مهلًا هل أنت إنسان أم شيطان يريد التلاعب بي؟

ابتسم الشاب ثم وقف ووضع الكتاب في مكانه على أحد أرفف

المكتبة:

- الشياطين لا يمكنها القراءة أو الكتابة، وأنا كنت أقرا للتو قبل أن تقاطعنى.

التفت إلى خالد ومد يده مصافحًا إياه ثم قال:

- لا تقلق، أنا إنسان أكثر منك على الأقل، اسمى مختار، مختار زيدان، وهذا منزلي الذي ورثته عن جدي، منزل يصعب اختراقه أيضًا، ليس كمنزلك الذي يسهل اختراقه.

نظر له خالد في ريبة فقرأ مختار ما يدور في عقله فحاول أن يطمئنه:

- هل تساءلت يومًا لماذا لم تتعرض لك الشياطين خارج منزلك؟ ولمَ في المرة الأخيرة عند معرفة ما حدث من التوأم لم يتعرض لك أحد من الشياطين؟

- صدقني لم أفكر في ذلك الأمر، ولكنني أعتقد أنهم كانوا يريدون ما بداخل الصناديق من كتب وأداوات تخص عالمهم، ولكن في المرة الأخيره.. لحظة.. أنت من منعت الشياطين تتعرض لي؟

ابتسم له مختار قائلًا:

- لقد كنت بجوارك منذ البداية لكنك لم تلحظ وجودي، لا أنت ولا هم، وعندما حان الوقت للتدخل والظهور فعلت، هل يمكنك إخباري أيضًا عن تلك الليلة التي وجدت بها كتاب «السجل الأحمر» داخل بيتك؟

- كان أنت!! أنت من أحضر لي ذلك الكتاب؟ لماذا لم تستخدمه؟

- لا أحتاج لكتاب حتى أتمكن من العبور إلى عالمهم، أنا أحيا داخل العالمين منذ نعومة أظافري، لا تقلق، لا مزيد من الأسرار، سأكون برفقتك في كل خطوة نحن مقبلون عليها سويًا.

صافحه خالد ووقف أمامه، أمسك به واتجها إلى الخارج وهو يتحدث إليه:

- أريدك أن تنسى كل ما علّمك إياه شيطانك في السابق، أنا لم أتوقع أن أستقبل أحدًا في منزلي، أظنك تتفهمني، أنا أحب العزلة مثلك تمامًا، وأمتلك من العلوم ما يفوق خيالك، لكن لا يمكنني أن أكون مثلك (مُنطقًا للموتى)، أنا أتعامل معهم بطريقة مختلفة، سنكمل بعضنا البعض، ومعًا سنشكّل فريقًا لا يمكن لأي شيطان هزيمته، ما رأيك (مُنطِق الموتى) برفقة (صاحب الخطوة) في مواجهة أعتى الشياطين والمردة.

أنهى كلماته ووقف أمامه وجهًا لوجه في انتظار قراره، صمت خالد قليلًا ثم نظر إلى مختار وقال:

- موافق.

تمّت بحمد الله

ديسمبر 2023